المبحث الثالث

التعليم

ميّز الله تعالى الإنسان بقوّتين جليلتين

(١) القدرة على اختبار الأمور بنفسه ، واستنباط الضوابط ذات الخير والشرّ منها

(٢) القدرة على سَبْر غَوْر الأعمال التى نسج على منوالها الخلفاء والمعاصرون والسالفون ؛ والسعى فى محاكاة ما عانوه لرقىّ الشئون الاجتماعيّة .

فالقوّة الأولى يشارك الحيوانُ الراقى الإنسانَ فيها من بعض الوجوه . وأمّا الثانية فهى حبس على الإنسان ، يستفيد بها مطالبه من طريق التكلّم مع المجرّبين ، وقراءة سيرهم ، والاسترشاد بنصائح المؤدّبين ، والتخلّق بهديهم .

إنّ السعيد له فى غيره عظة وفى التجارب تحكيم ومعتبر

من أجل هذا اهتمّت كلُّ أمّة بسنّ أنظمة تلائم عاداتها . ومنذ فطر الله الإنسان على الاجتماع لا تزال القراءة والكتابة والحساب أساساً للتعليم .

يبتدئ الطفل فيتعلّم لغة أبويه وخلطائه والمستوطنين بلده ؛

ويستفيد من مجرّباتهم ؛ ويتحوّل إلى منطقة أوسع يتعلّم فيها اللغات التى جال أهلها فى سبل الحياة ، ليكون له بالعقول الراجحة صلة. فتتّسع ميادين اختباره ، وتمتدّ آفاق نظراته ، وتغزر ينابيع معارفه .

وقد كُلّف المعلّم تهذيب الطفل ، وأُلزِم تغذيته بالعلوم والآداب ؛ وحُمّل عبء التبعة كلّها للوصول به إلى شاطئ السلامة كاملا . حتّى لقد غلا هربارت [1] فادّعى أنّ فى استطاعته وحده أن يصيّره نابغة أو عبقريّا . فهذا مسلّم إذا وجد لدى الطفل استعداد للفهم والحفظ والذكر . وما ذا عسى أن يبلغه المعلّم القدير ، إذا فقد الطفل هذه المواهب ؟ والنسيان وحده آفة عاتية تعارض قوانين التعليم وتحلّ عراه . ومن يشترط فى المعلّم الجدارة ويَلْفِتْ نظره عن الاستعداد الفطرىّ للطفل فقد شطّ عن الصواب ؛ وربما غلبه فى حكمه هذا نبوغُه فى إبّان طفولته ، فيتّخذ من نفسه مقياسا وينبرى للمناضلة به . ومن يُجَرّدْ نفسه من ذخائر الحفظ والذكر ، ثمّ يأخذ مجلسه بين المتكلّمين أو الكاتبين ، لا يجد شيئاً يستمدّ منه فى الأمرين .

مثال لضعف الحفظ والذكر

إليك الفراشةَ ، يؤثّر ضوء المصباح فى بصرها ، فتتأثّر أعصاب الحركة عندها ، وتسعى للاقتراب من الضوء . وما تلمس اللهب حتّى تحسّ ألم الاحتراق فترتدّ ناكصة . ثمّ يؤثّر الضوء ثانياً فى بصرها ،

(١) هربارت توفى سنة ١٨٤١ ألمانى عاصر أستاذه بستالوتزى وبرز فى الحكمة والرياضيات والطبيعيات ، له آراء فى التعليم وطرق سديدة عوّل عليها المربون

فتنسى ما اختبرته أوّلا ، وتندفع إلى اللهب وتحتكّ به ، فيزيدها ألماً على ألم . كأنّ ما أصابها أوّلاً على شدّته قد ذهب أدراج الرياح . ولا تزال فى اندفاع ونكوص حتّى تتقطّع أوصالها ، ويأتيها الموت من كلّ مكان .

هذا هو شأن غير الفقرىّ من الحيوان، فإنّه يولد وينمو ، ونصيبه من الغريزة ثابت فى الأمرين لا يقبل التعديل . وقد استثنوا من ذلك النمل والنحل والزنبار فإنّ التمرين يكسبها قوّة ، كالحيوان الفقرىّ الذى حياته رهينة الكسب .

الشوق والتشويق

الشوق حنين النفس إلى شىء تميل إليه ، فتنبسط له الأعصاب، وتستقبل مقدارًا وفيرًا من الدم يجول فى أنحاء الجسم ، ويعوّض ما تدثر من أنسجته ، ويطهّره من فضلات الاحتراق . وإذا حيل بين النفس وما تشتهى انقبضت الأعصاب ، وانحسر الدم فيلقى الجسم العذاب من أجل ذلك ، ويعيش عيشة سيّئة .

وليس لدينا ضابط للمشوّقات إذ لكلّ إنسان غرض يوافق مزاجه يكدّ لإدراكه ولا يطيق عنه صبرا ، فإنّ من يجيد الخطّ مثلاً إذا تناول مكتوباً قصر النظر على حروفه وتراكيبه وأشار إلى ما وافق القواعد الخطّيّة وما خالفها ، بَيْد أنّ الأديب يوجّه نظره إلى مادّته

وما زخر فيها من المعانى وما حوته من الترتيب والتنسيق ، ويمرُّ بخطّه الكريم دون أن يعيره التفاتا .

لو قدر المربّى على تعرُّف مزاج الطفل من غضون حركاته لتسنّى له أن يقطع لرقّ التعليم شوطاً واسعا ، ولاتّخذ له من ذرائع التشويق عدّته ، ولأمكنه أن يضبط انتباه الطفل ويسير به إلى الغرض المنشود .

لانقول بضرورة كون هذا الوازع المشوّق من الأمور المألوفة فحسب ، لأنّ الأمر المألوف تُرْخِص العادة من قيمته ، فتبتذله النفس ولا يعود له وقع فيها . ولا نقول بضرورة كونه من الأشياء الطريفة الغريبة فحسب ، لأنّ الأمر الغريب تنفر منه النفس خشية أن تترسّم فيه ما يؤلمها .

وإذا اجتمع الطريف والمألوف معاً ، وائتلفت عناصرهما ، تولّدت منهما شرارة الشوق ، وبرقت منهما أشعّة الجذل والسرور .

كم تتلهّف نفس طالب العلم إلى إحراز مكافأة شوقاً إليها ، فإذا انطلق فى ميدان العلم ولامست قضاياه نفسه ، صار له من الاستكثار منه شوق يغنيه عن تلك المكافأة ، وبذلك نرى هذا الشوق خرج من دائرة المحسّات إلى درجة المعانى ، وهى الدرجة التى تسمو بها النفس .

وكثيرًا ماتلهو نفس الطفل بما يملك حواسّه فينصرف عن الانتباه إلى مانريد ، وماهى إلّا همّة المعلّم يستعين بها على إثارة الشوق

فيه ، فيتحوَّل الطفل بسهولة عن ميوله ويخضع لإرادة المعلّم . فإذا رافقه المعلّم إلى الصحراء مثلاً وأراه مظاهر الطبيعة ، وآثارها البديعة ، من الجبال والهِضاب ، وكيف يتراكم السحاب ، وأراه الشمس لابسة حلّة الجمال فى شروقها وغروبها ، وفكّ وثاقه فسمح له بالجولان أينما شاء ، فإنّ ذلك يحرّك فيه الشوق لا محالة فيزيد الأمور تأمُّلا ، ويملأ عينيه من محاسنها ، ويصغى إلى أسمائها وما يصوغه المعلّم من الأحاديث لها ، ليسلّى نفسه إذا عاد بذكرها ، ويحدّث إخوانه مفتخراً بها . وهذا هو معنى قول بستالوتزى : — « كتاب الطبيعة يجب أن يقرأ قبل كلّ كتاب »

ولقد يملك الشوق زمام الأديب فيدفعه إلى قرض الشعر أو قول النثر ، والمطالع يرى بروق الشوق تتلألأ من ثنايا منطقه العذب. ترى هذا جليًّا فى قول علىّ[1] بن الجهم يستمطر الرحمة للبعيد عن وطنه : —

وارحمتاً للغريب فى البلد النـــــازح ما ذا بنفسه صنعا ؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

فإنّ شوقه إلى وطنه تمكّن من قلبه تمكُّناً دفعه لإظهار حنانه على الغريب . وهذا قول أبى نواس[2] له روعة أخرى لا تنقص عن تلك الروعه : —

(١) على بن الجهم كان من الأدباء المعاصرين للمتوكل الخليفة العباسى

(٢) أبو نواس هو أبو على الحسين بن هانئ توفى سنة ١٩٨ هـ من أجود الشعراء بديهة ، وأرقهم حاشية ، وكان العلماء يروون شعره للاحته ويتفكهون به

تقول التى من بينها خفّ مركبى عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للعلا متطلّب بلى إنّ أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر جرت فجرى فى إثرهنّ عبير
ذريني أكثّر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

فإنّه — إذ أبى المقام بوطنه ورغب فى النزوح عنه — لم يحطّ من كرامته والسعى فى جرّ النفع إليه ، فنشط إلى النزوح على غير إرادة أهله ، ليكمّل نفسه ويكثر حاسديه بعودة تجعل حظّ وطنه من السعادة موفورا . وهذا الضرب من الشوق شيمة أولى النفوس الكبيرة

ولقد تفهم فواعل الشوق فى الحيوان ، إذا صوّبت نظرك إلى الحصان مثلاً وقد ساقه سائسه إلى موارد الماء ، فإنّه ينقاد إليه رغماً منه ، ولكنّه لا يشرب إلّا إذا اشتاق الماء ، أو أثار التصفير فيه هذا الشوق .

والشجرة تخرج أزهارها ذات الألوان الجميلة الجذّابة تفتن بها الحشرات فتجىء إليها ، وتهبط عليها ، حاملة فى فمها وبين أرجلها مادّة النبات فتتولّد منه الثمرة .

الحاجة الى شحذ الغريزة

لو فحصت عن القوّة التى تضبط حركات الحيوان لعلمت أنّها الغرائز . فهو يسعى مسترشداً بنورها ، مقبلاً على الخير ، مدبراً عن الشر

ولو بحثت عن القوّة التى تملك زمام الطفل ، وتكفل الرجل فى الأوقات العصيبة التى يذهل فيها عقله، ويحار لبُّه ، ماوجدت مصدرها غير الغرائز .

ولو نظرت إلى الإنسان العاقل والحوادث تصارعه ويصارعها ، لم ترله صديقاً حميماً يكفُّ عنه المخاوف سوى الغرائز .

فللغرائز الحول والطول ، والحكم العدل .

بيد أنَّ البيئة بما زخرت من ضروب الحيل والزخرف تستطيع أن تموّه الباطل وتصبغه بصبغة الحقّ ، وتقف فى طريق الغرائز فتحوّل مجراها ، وتجعلها ذريعة الشرّ . فالسمكة تسعى فى البحر بدافع الغريزة لنيل غذائها فتلتقمه ، وقد يكون طُعْماً فتقع به فى شرك الموت . والإنسان يستند إلى بنى نوعه لأنَّ الاجتماع فيه طبع ، فيجمعه سوء طالعه بقوم قطع التنازع أواصر إخائهم ، فيلقى منهم مايسوءه . والرجل يسقط من الترام فتتحرّك رجلاه بحكم الغريزة دفاعاً عن النفس ، فتمرُّ العجلات بهما فتبترهما . والغريق يمدُّ يديه أملاً فى المعونة ، أو رجاء أن تتعلّقا بشىء . فيكون صنعهما هذا سبباً للغرق ، إذ لو ترك نفسه لطفا جزء منه فينجو . قال المعرّىُّ فى هذا المعنى : —

وكلٌّ يريد العيش والعيش حتفه ويستعذب اللذّات وهى سِمام

وقال فى موضع آخر

وربَّ ظمآن إلى مورد والموت لو يعلم فى ورده

كذلك قال ابن زيدون فى رسالته الجدّيّة : « لا غرْوَ قد يُغِص

الماء شاربَه . ويقتل الدواءُ المستشفىَ به . ويؤتى الحذِر من مأمنه . وتكون منيَّة المتمنّى فى أمنيَّته . والحين قد يسبق جهد الحريص . »

وجوب إشراف العقل على الغرائز

فالغريزة ترشد بالطبع إلى السلامة ، وتتغيَّر صبغتها صلاحاً وفساداً تبعاً لطبيعة البيئة . ولذلك يجب إشراف العقل عليها ليمحّص قضاياها ، ويتّخذ منها مقدّمات صادقة لأحكامه .

يتردّد الإنسان بين طريق الفضائل والرذائل كالتائه فى البيداء ، والسارى فى الظلماء ؛ وإذا اضطرب به بحر الحوادث مرّت سفينته بشواطئ الشره والقناعة ، والجبن والشجاعة ، والحشمة والكبرياء ، والتواضع والرياء . فلا يدرى أيّهما يختار ، ولا على أيّهما يعوّل ؛ وإذا قادته الغريزة إلى واحدة منها زحمته الأخرى حتّى يؤيد العقل أمثلها ، وبذلك يظهر مقام الألمعىّ الذى يظنُّ بك الظنَّ كأنّه قد رأى وقد سمع .

كان ابن طولون يأكل فى إحدى حدائقه . فرأى سائلاً فى ثياب رثّة ، فأرسل إليه بعض الغلمان برغيف ودجاجة ، فآب الغلام دون أن يتناول السائل منه شيئا . فأمر ابن طولون به فأحضر ، واتّهمه بأنّه جاسوس بعض الأعداء . فاعترف الرجل بذلك . فقال بعض جلسائه إنّ صنيع الملك ضرب من السحر ، فقال ابن طولون : « إنّما هو قياس صائب ، إنّى رأيت سوء هيئة الرجل ، وإباءه عن طعام يتمنّى الشبعان أن يأكله . ثمّ رأيت ماله من الجراءة ، ورباطة الجأش ، فحكمت بما حكمت . »

ورَوَى ابن خلدون أنّ رضوان قال : أنشدت أبا العبّاس ابن

شعيب مطلع قصيدة ابن النحوىّ ولم أنسبها اليه وهو : —

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال له على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت له : ومن أين لك ذلك ؟ قال من قوله : «ماالفرق» إذهى من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب . فقلت : لله أبوك ، فإنّه ابن النحوىّ . فانظر كيف كان حكم هذا الناقد سديدا . وقد أجاد ابن المعتزّ حيث يقول : —

تفقّد مساقط لحظ المريب فإنّ العيون وجوه القلوب

وطالع بوادره فى الكلام فإنّك تجنى ثمار الغيوب

كيف تتخذ الغريزة أساساً للتعليم ؟

علينا أن نشير بعض الغرائز فى الطفل ، ثمّ نراقب أثرها ونعدّله محوًا وإثباتاً على النمط الذى يلائم التعليم . فرضنا أنّنا عرضنا عليه لُعبة جديدة ، فإنّك تراه كما فى الشكل الآتى يمدّ يديه لأخذها متلهّفا ، وهذا طبع لا يتخلّف فيه ما دام سليماً من الأمراض . فرضنا أنّنا ضربناه على يديه وهو يمدّهما ، فإنّه يردّهما مكرها ، خوفاً على نفسه من الأذى ، ويتسلّط عليه اليأس فيبكى ويصرخ ، والبكاء فى اصطلاح الأطفال لغة يعبّر بها عن الاستياء الذاتىّ يَهيجُ به عواطفَ السامعين للأخذ بناصره .

هبنا ظهرنا أمامه حينئذ مشفقين ، ورمقناه بأعيننا فرحين ،

إنّ الشكل الأوّل هنا يمثّل أربعة مسالك للخلايا الدنيا ، التى هى مراجع للأعمال الغريزيّة . وأربعة مسالك أخرى منقّطة ، تصل الخلايا الدنيا بالعليا ، التى هى مستودع قوى الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والعقل ، ورسمها هكذا عنوان على وجودها بالقوّة ، وسير السهام يرشد إلى لزوم الأسباب للمسبّبات هكذا :

رأى فاختطف — لُكِمَ فصاح — نُصِحَ فرَجا — أخذ فتبسّم

وترى بالشكل الثانى أنّ رؤية الشىء لايسير أثرها سيره الغريزىّ الأوّل ، المشار إليه بالمسلك المنقّط ، بل يسير إلى قوّة الملاحظة لتفقّد معالمه ؛ ثمّ إلى الحافظة والذاكرة ؛ ثمّ إلى الخيال فيحلّ أجزاءه ، ويركبه تركيباً يناسب ما رسخ فيه من قوّة الإبداع ؛ ثمّ إلى القوّة العاقلة المفكّرة لتتدبّر الأمر وتصوغ الحكم الفصل ، وتبعث به إلى أعضاء الحركة لتستمدّ منها التنفيذ . وهنا يرى أنّ بعض المسالك الغريزيّة صار عاطلا ، بعد أن كان عاملا ، وأنّ التيّار الذى ينقل التأثير بدلاً من أن يَعْجَل فيوعز بالإنفاذ يجىء إلى الخلايا العليا طلباً للاستشارة ، ثمّ يهبط أخيرًا إلى الأعضاء العاملة بعد إمعان وروية .

فانظر كيف فعل التعليم بالمسالك الغريزيّة ، وكيف أفاض عليها من خير الوسائل مايكفل له إدراك الغاية المنشودة ، وكيف وفّق بين المبدأ والغاية ، جاعلاً من العقل سلطاناً على الحركات ، وكيف تنبّهت المسالك الأخرى التى لولاها لاختلّ نظام الاعمال أو اعتراها الفساد ؛ وكيف برزت الأعمال ممحّصة بعد أن جُرّدت من غشاوة التضليل .

عمل مثل هـذا لم يأخـذ على الإنسان عهداً أن يكون دائماً حليف الصواب ، فالمجتهد يصيب ويخطئ على حسب رزانة العقل ، وجودة تصرُّفات قواه ، ومساعدة العناية الإلهيَّة .

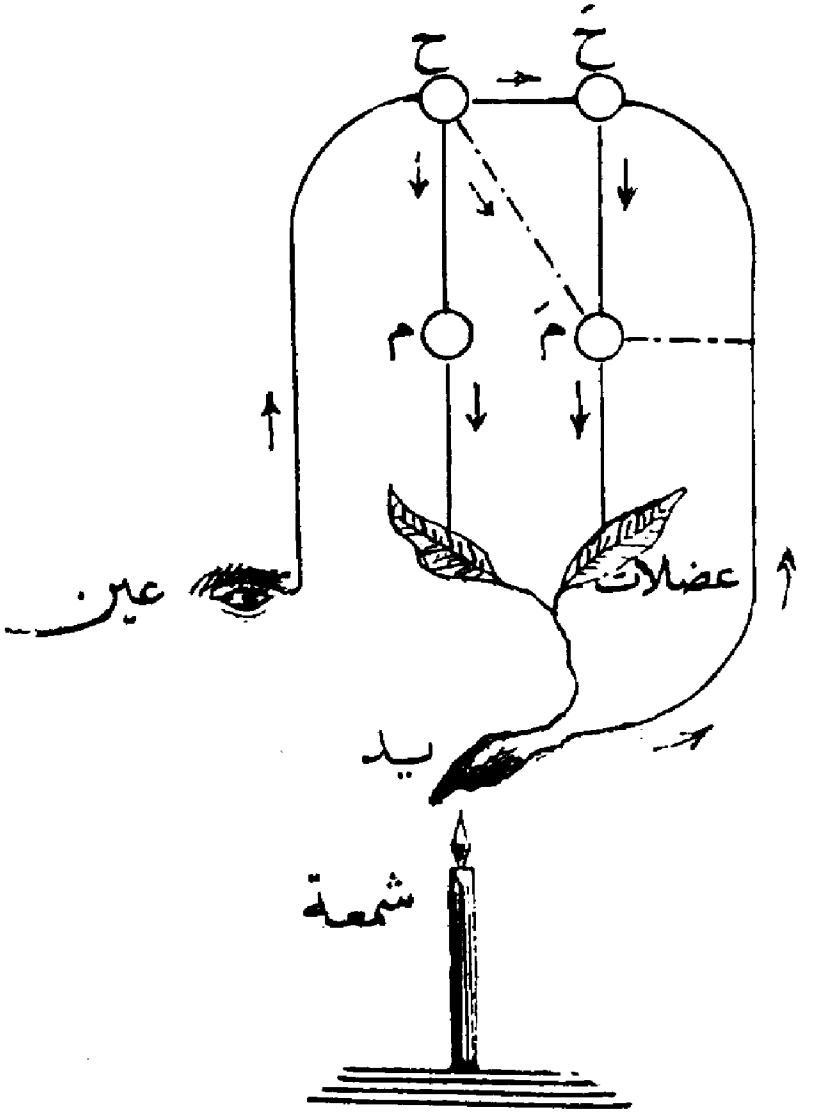

إليك مثالاً آخر : إنّ الشمعة المضيئة فى هذا الشكل تنبّه مركز الإحساس البصرىّ فى المخّ ح فينتقل التأثير منه إلى مركز الحركة م . ومنه إلى العضلات الموصولة به فتتحرّك تنفيذاً للعمل المطلوب، فتمتدُّ اليد إلى الشمعة لتلمسها . ثمّ إنّ الحركة التى تحدث ألم الاحتراق تنبّه

من طريق آخر مركز الإحساس حَ لأداء عمل يضادُّ الأوّل ، وهو كفُّ اليد عن مركز التأثير ، فإذا عرض التأثير فى فرصة أخرى ، فإنّ مركز الإحساس الذى ضبط صورة الانفعال الأخير وما فيه من حرج ، ينقل الإحساس إلى حَ مباشرة بدلاً من الاستعانة بمركز الحركة م ، ثمّ يسرى حكم العقل فى لهب الشمعة إلى كلّ ماله شبه به ، فيدعو الحوادث ويذكر ما لابسها من الخطر قبل أن تمتدّ اليد للاختبار ، ويصدر الحكم إمّا بعدم الاقتراب منه لأنّه ذو خطر ، وإمّا بالفرار منه ويكفى لذلك تنبيه المركز مَ .

وقد ورد فى الأثر « لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » فالمؤمن الذى شأنه أن يكون عاقلاً إذا نزلت به مصيبة ، بحث عن أسبابها ، وفسح لها فى ذهنه مكانا ، فاذا عاودته بنفسها أو بنظائرها ، أيقظ عقله للحكم السديد قياساً على ما جرّب ، ونبّه الوازع لاجتنابها ، إلّا إذا قضى عليه القضاء المبرَم ، وأنساه استحضار العبرة ، فحينئذ لا يتّسع المجال إلّا للصبر .

فعلى المؤدّبين أن يرفقوا بقوّتى الحفظ والذكر ، ولا يركنوا إلى مجرّد الاستظهار مهملين الاستذكار الإرادىّ الذى هو دِعامة الأخلاق . أليست المعانى كنزًا يدّخر لينفق منه عند مسيس الحاجة ؟ ولولا الإنفاق لكان المدّخر من سقَط المتاع .

اختلاف نزعات الكتاب والخطباء

تختلف نزعات الكتّاب والخطباء باختلاف قدرتهم على عرض الأفكار وأشباهها ونظائرها . ترى الشاعر إذا عزم على الإنشاء تتوارد

على ذهنه المعانى وعباراتها فيستجيد ، ويؤلّف بين أشتات الشوارد ، ويسوق إلى الناس قولاً يستهوى العقول وينقلها إلى الأغراض التى يريدها ، فأحيانًا يريد تصغير نفس البخيل فى نظره وتنفيره من البخل. وقد قال حاتم الطائىُّ فى هذا المعنى وأجاد :

يرى البخيل سبيل المال واحدة إنّ الجواد يرى فى ماله سبلا

ويرى أحيانًا أن ينزِع عن الجبان رداء الرعب والفزع وينفخ فيه روح الشجاعة والإقدام كما قال جرير :

قل للجبان إذا تأخّر سرجه هل أنت من شرك المنيّة ناج ؟

ويريد أحيانًا أن يزيل ما يخالج القلب من الامتعاض كما قال صاحب المثل السائر : —

جرحوا قلبي وحبّهم يذهب بألم الجراحة ، وطرفوا عينى وهم يزيدون فى نظرها ملاحة .

ويريد أحيانًا أن يعتذر عن مزاولة أمر غير مباح على حدّ قول ابن الرومىّ : —

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه حداداً على شرخ الشبيبة يلبس

ويريد أحيانًا أن يرقى إلى ذروة الرجاء فيصوغ القول الفذّ على النهج الذى صاغه أبو زيد الأشبونىُّ فى إدريس العالى ملك الأندلس حيث قال : —

انظرونا نقتبس من نوركم إنّه من نور ربّ العالمين

وقد بلغ تأثّر الملك من روعة هذا الشعر ، وكان محتجباً على عادته

أن أمر الحاجب أن يرفع عنه الحجاب ، ليقابل بوجهه وجه الشاعر ، وأمر له باحسان ليجمع بين أمنيّتيه .

وأحيانا يودُّ تصوير الحقيقة بالوصف الموجز كقول الحرث بن حلّزة اليشكرى

أجمعوا أمرهم عشاءً فلمّا أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ـهال خيل خلال ذاك رُغاء[1]

الملكات العقلية

١) الملاحظة

استدعى معلّم شابّين من تلاميذه ، فلمّا مَثَلا بين يديه سألهما عمّا شاهدا فى الطريق إلى المدرسة ، فأجاب أحدهما بأنه غادر المنزل وسار حتّى وصل إلى المدرسة، ولم يتذكّر شيئاً رآه فى أثناء السير أو سمعه. أمّا الآخر فقد أطرق قليلا ، ثمّ انبرى فقصّ ما أثّر فى حواسّه من مظاهر الكون وزخرف الصناعة ، وأرسل شعاعاً من فكره إلى دقائقها ، فأحاط بها ورسمها رسماً يحرّك العواطف ويستحثُّ الخيال ؛ ثمّ انطلق جواد لسانه فى ميدان القول، فوصف الجوّ صباحاً حينما غادر المنزل ؛ وعطف على وصف الشمس وقت شروقها ، وما لها من القوّة فى إزالة حجب الظلام ؛ ثمّ تكلم عن السحاب وتكوينه وفوائده

---

(١) ضجيج

ووقوفه أمام الشمس وانحساره عنها ؛ ووصف نَوْر الشجر يفتّحه مرُّ النسيم ، ويترقرق عليه دمع الندى ، وتتعطّر به الأرجاء — وصف كلَّ هذا وصفاً جمع طرائف الأدب ، ومشاهد الطبيعة . ثمّ شخص إلى عالم الحيوان والطير فذكر ما شجاه من أصواتها ، وما عرف من سجاياها ، وقد أخذ حديثه يتدفّق تدفُّقاً يدلُّ حسن تنسيقه وارتباط أجزائه على قوّة بليغة من الملاحظة وحسن الذوق ، ومن ذا الذي لا تفتنه مظاهر الطبيعة ؟ قبل بزوغ الشمس يكون السكون شاملا ، حتّى إذا تنفّس الصبح غرّدت الطيور على أفنان الأشجار فَرِحة ، ثمّ تتألّق الشمس فتخلع عن الجوّ لباس الحداد الذى اكتسى به حزناً على فراقها ، وتأخذ فى السير والنفوس تشيّعها بنظرات المشتاق حتّى تغيب

فمثل هذا المظهر إذا صقلته يد الطبيعة ، وألبسته ثياب الجدّة ، تجده يوجّه زمام النفس إلى التطلُّع إليه ، والكفّ عما سواه ، ومتى شبعت منه — وزمن هذا لا يزيد على بضع ثوان — أدركت بغيتها ، وصار تأثيره فيها عاديّا ، اللهم إلّا إذا تغيّر شكله أو وصفه ، أو تكرّر نظر النفس إليه باعتبارات عدّة .

لا نطمع أن نذكر السبب الحقيقىّ لذلك ؛ وإنّما يهمّنا أن نرى ولو على سبيل الحَدْس والتخمين وجه التأثير . فإنّ المعانى الجديدة — على ما شرحنا فى باب الشوق — تثير النفس فترحّب بها ، وتنزلها فى دائرة تليق بها من فراغ العقل ، وهناك يحصل بين المكان وتزيله احتكاك كاحتكاك الكهرباء ، فيتولّد منه شرارة نعبّر عنها بوجدان

السرور والجذل . فإذا تحققنا أنّ نتيجة هـذا التفاعل فقدان مادّة التيّارات الكهربائيّة ، فلا نزاع فى أن حركة الوجدان ينشأ عنها استهلاك مادّة الخليّة المنوطة بملاحظته ، فتنصرف عنه انصرافاً قهريّا . والملاحظة حينئذ لا تقف ، بل تتنقّل من سبيل إلى سبيل ، مادامت النفس فى طور اليقظة .

فإذا شئنا حبس الملاحظة على أمر بعينه ، فلا بدّ من صبغه بصبغة متجدّدة كالخيالة[1] ، ليبعث النفس على إيقاظ ما غزرت مادّته من الخلايا . والنفس الكبيرة لا تعتمد على شىء ممّا يثير الملاحظة ، بل تتصرف بنفسها ناظرة إلى الشىء الثابت من وجوه متنوّعة لتكون المعانى جديدة فيّاضة . ولا نحتاج إلى شىء وراء هذا لتقويم الملاحظة التى عليها عماد القوى العقليّة .

ضع قلمك أمامك ، وتفرّغ للنظر إليه ، بحيث لا تدع البصر يتحوّل عنه ، فإنّه لا محالة يكِلُّ بعد زمن وجيز . لكنّك إذا شخصت إليه من وجوه كثيرة ، وعرضت أوصافه ، ففحصت عن شكله ولونه واعتداله ، وطيب مادّته ، وحسن بريه ، وسلاسة كتابته ، ووازنت بينه وبين نظائره . ثمّ إذا توسّعت وخرجت من حظيرة الملاحظة ، وسمحت الانتباه أن يتصوّر الأقطار التى تزرعه ، والصنّاع الذين يهيّئونه للاستعمال ، والتجّار الذين يجلبونه إلى ديارنا ، ثمّ اخترق ذهنك حجاب الماضى فكشفت عن تاريخه ، وما ترنّم الأدباء بشأنه فى المديح

(١) السينماتوغراف

وما صاغوه من زخرف القول ، فى المفاضلة بينه وبين السيف إلى آخر ما تستطيع سرده على سبيل الاستطراد — فإنّك تجد زمن الملاحظة يطول بقدر ما يسمح به حسن تصرُّفك ، لأنّ كلّ حركة ذهنيّة من هـذا القبيل تنبّه خليّة خاصّة ، ولا تكاد تَكِلُّ الواحدة حتّى تتنبّه الأخرى .

تحويل الملاحظة يخفف وطأة الألم

لا تستطيع النفس أن تصوّب سهام الملاحظة إلّا إلى شىء واحد فى زمن واحد ، وقد يكون الانتباه إليـه قهريًّا إذا قوى سببه كصوت الموسيقى ، ورؤية البرق الخاطف ، وسماع الرعد القاصف . وقد يحـدث فيها امتعاضاً وألماً ، كمن أصيب بجرح وتولّى الطبيب تضميده ، انظر إلى الشكل الآتى .

غـير أنّ النفس حينئذ هرباً من إحساس التوجُّع تتوسّـل إلى الانصراف عنه بعامل آخر كالتنهُّد أو الصراخ أو اضطراب الأيدى والأرجل ، لتحوّل الملاحظة إلى أمر آخر تحدثه ؛ كأنّها تسعى بطبيعتها لتهدئة الخاطر السقيم ، فتقيم شيئاً سهلاً مقام شىء صعب . ومثل هذا ضحك الحزين « وشرُّ الشدائد مايضحك » ، ولعلّه من الجسم تخفيف للّوعة ، كالعرق يفرزه الجسم تقليلاً لوطأة الحرارة . وغالباً يبكى الأطفال بأصوات رهيبة ، ولم يكن بكاؤهم يأساً من فقدان الشىء ، بل تسلية وتخفيفاً لمصيبة الحرمان . وإنّ من يرزح تحت أعباء البؤس تتلهّف نفسه لاستذكار ماتمتّع به من قبـل ، أو تنصرف إلى انتظار أسـباب الفرج ترجو بها تخفيف وقع الشدّة . حتّى إذا صلح الأمر وجبر الكسر

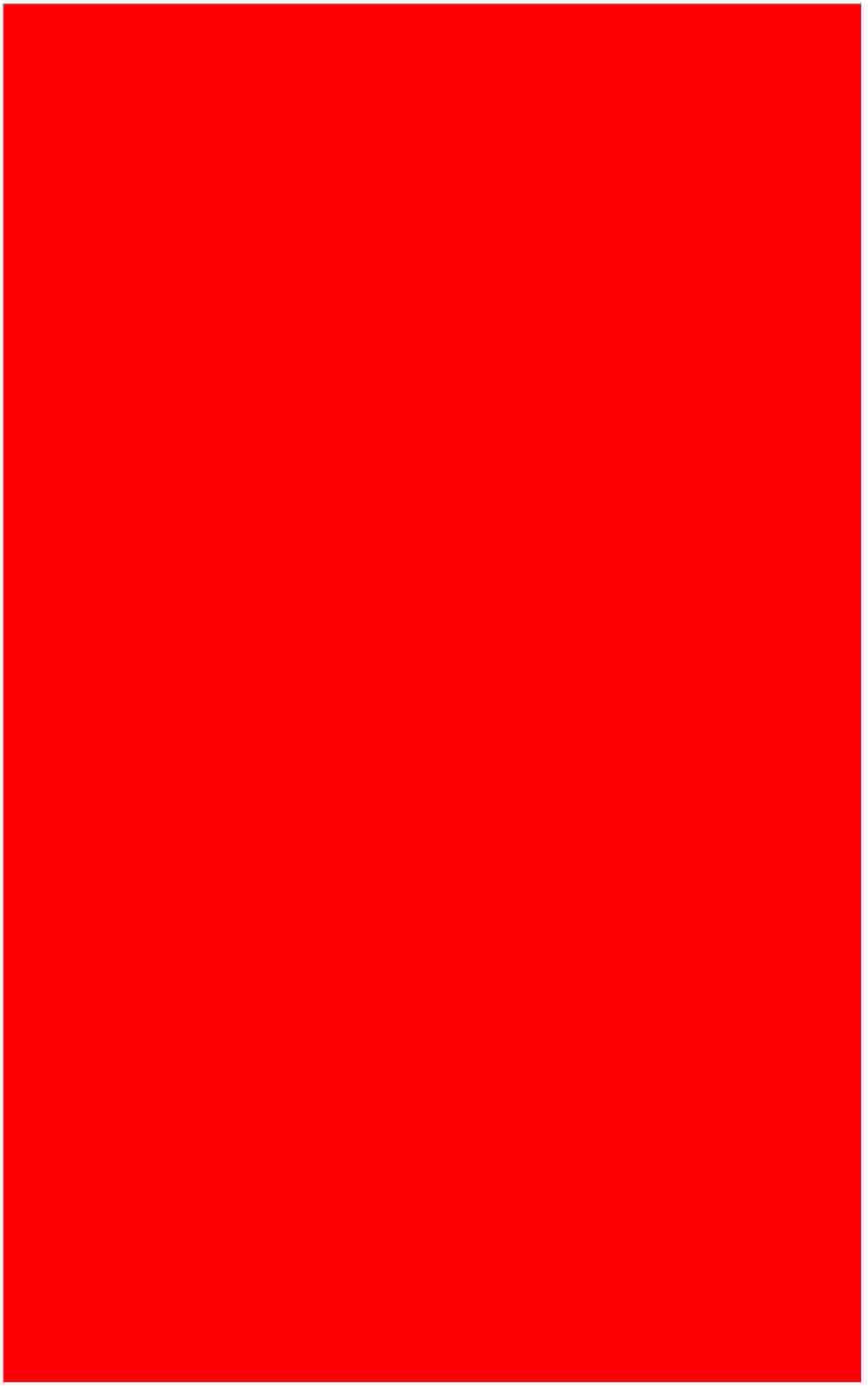

هـذين الأمرين ليسا خاضعين لسلطان واحـد . فأحدهما صادر عن الفكر ، والآخر صيَّرته العادة آليًا .

الملاحظة نور تستجلى به النفس حقائق المرئيّات وأشباهها من المحسّات. فبينما الإنسان يمرُّ بفكره على الأشياء بدون إمعان ورويَّة، ولا يستطيع أن يغوص فى مضامينها ، ليتعرّف شأنها ، وما تحتوى من خير وشرّ ، تجد المصوّر يرمق الأشياء بعين الخبير ، فيرسم ورق الشجر بدرجات تتفاوت فى الخضرة ، بحسب نصيبه من الضوء ، فأحيانًا مشرّبًا بسمرة وأحيانًا بصفرة . وتجد الفيلسوف ناظرًا إلى السماء ، غوّاصًا فى بحار الفكر والتأمُّل . على أنّ النفس المدركة تتفاوت مدركاتها للشىء الواحد بتنوُّع أطوارها كالنشاط والكسل ، والجوع والامتلاء ، والصحّة والسقم ، والسرور والحزن ، والعلم والجهل ، فتجدها لا تستقرُّ على حال واحـدة كزئبق مقياس الحرارة . ولا مُشاحّة فى أنّ حالها فى الصباح غيرُ حالها فى المساء ، وهى فى الشتاء غـيرُها فى الصيف ، وهى صغيرةً غـيرُها كبيرةً أو معمَّرةً ، وهى ساذجةً غـيرُها عالمةً مدبّرة مجرّبة . فكم لعب اليأس بفكر لاعب الشِّطْرَنْج[1] مثلا ، فتفيض عليه الملاحظة وَحْيًا ينفخ فيه روحًا يقهر بها خصمه فى ميدان المناضلة . وقد تعترضه العقبة الكأداء فيحكم الملاحظة ويخرج منها حليف الفوز ناجحا . وكم التذّ الإنسان من

تفاوت مدركات النفس الواحدة

(١) الشطرنج لعبة هندية الاصل قد اتصلت بالمشرق أولا ثم صارت من أهم الالعاب فى العالم . اعتبرها الغربيون دون العلوم بيسير وفوق الألعاب بكثير

زخرف الشيء لأوّل وهلة ، أو استجاد مذاقه فانبرى يحمده ، ويحبّب النفوس إليه ، مع أنّه لو راقبه بإمعان ، وأفاض عليه شعاعاً من نور الفكر لانجلى عن سمّ فى دسم

فالملاحظة نعيم المفكر ، وسلوى المتوجّع ، ومفزع المحزون ، وحسبنا دليلاً على علوّ شأنها ما نرى من آثارها الكبار عند ترداد النظر إلى شيء معيّن

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا[1]

ناهيك بدرجة المراقبة التى يلوذ بها الأتقياء ، فيعرضون أعمالهم على محكّ الانتقاد قبل أن يختموا صحيفة يومهم ؛ ويحاسبون أنفسهم على مافعلوا ، فإذا كان خيرًا عزموا على الاستكثار منه ، وإذا خطرت فيه شائبة الباطل استعاذوا بالله منه وتحامَوْه .

لا سبيل إلى تقويم الملاحظة إلّا بالمحافظة على سلامة الحواسّ ومعالجتها بالتمرين . إذَنْ تدرك العين الفروق بين الأشكال ماجاء منها منظّما ، وما حاد عن النظام ، وكذلك بين الألوان وما بينها من الدرجات ، وتدرك الأبعاد بموازنتها بأبعاد معلومة لديها من قبل ؛ كذلك تدرك

---

(١) أصل هذا البيت للعباس بن الاحنف فان هرون الرشيد وصف جاريته جنانا بقوله

جنان قد رأيناها فلم نر مثلها بشرا

ثم حاول الرشيد أن يضيف عليه فامتنع عليه القول فأرسل الى العباس بن الاحنف وكلفه أن يردفه بمثله فقال

يزيدك وجهها حسنا اذا ما زدته نظرا

الأذن المسموعات سواء أكانت من خرير الماء ، أم من عصف الريح ، وتغريد الطائر ، وغناء الإنسان ، وعزف الآلات ، ونفخ المزامير .

حاجة المعلم الى الملاحظة

من اشترط فى المعلّم أن يكون طبيبا ، أو على الأقلّ عارفاً مايعرض للحواسّ من الأمراض ، مستطيعاً تقويم المُعْوَجّ منها ، ما خرج عن محجّة الصواب . وكثيرًا ما رأينا قصار النظر من التلاميذ جالسين فى مؤخّر الحجرة بالمدرسة ، بعيدين عن المرئيّات التى يقيّد المعلّم أوابدها على السبُّورة . فأمثالهم يطيش سهم بصرهم ، ويتوسّم فيهم المعلّم الضعيف بَلَهًا هم بريئون منه . وقد تعترى الأعضاءَ الداخليّةَ أمراضٌ تعوق السمع عن إثبات المعانى ، وتؤدّى بالطفل إلى أن يُفْهَمَ فيه ما ليس حقيقيًا . وكم من تلميذ يتبادر إلى معلّمه أنّ سمعه سليم ، ولو فحصه لعرف مركز الداء ، واستعان بالدواء . واعلم أنّ بالحلق قناة موصولة بالأنف ، إذا سدّت لا تؤدّى الأُذن وظيفتها ، وَمَثَلُها كالصّفّارة إذا سُدّ ثقب منها . تفقّد حجرة بالمدرسة وراقب تلاميذها فلا تكاد تجدها خالية من تلميذ فاتح فاه . يفعل هذا قهراً ليتنفّس منه لأنّ الأنف — وهو عضو التنفّس الطبيعى — مسدود . وقد زوّدته الفطرة بزغب شعرىّ لينقّى الهواء الداخل إلى الرئة من الجراثيم . فإذا أمره المعلّم — ولا مردّ لأمره — بإغلاق فمه فقد حاول عبثا ، وظلم نفسه .

فإذا تبيّن لك أنّ فتح فمه يدلّ على أنّ تلك القناة مسدودة ، علمت أنّ سمعه معطّل لا يضبط المسموعات الواصلة إليه ، ومحتاج إلى علاج جراحىّ

٢) الحفظ والذكر

تصل آثار المحسّات فى النفس أحياناً إلى درجة بعيدة المدى ، ويريد الإنسان وصفها فيستعصى عليه القول ، وكلّما نشط رأى العِيان، أجلى من البيان. دُعىَ أحد السراة إلى مأدبة بقصر عابدين ، ولا تسل عن هذا القصر الذى هو زينة الدنيا ، ورمز لأُبّهة ملك مصر ؛ فرأى بناء فخماً كسته الرفاهة ثوب الجلال ، واجتمعت فيه أشتات الجمال ، من نور لامع ساطع ، ونقش جذّاب خلّاب ، وأثاث فتّان ، يلعب بالوجدان ؛ ورأى صدور المدعوّين تموج بالأوسمة ، وثغورهم من فرط السرور باسمة ؛ وسمع من حديث ربّ الدار ، جوامع الأفكار ؛ وذاق من المأكولات ، ألوان المشهّيات ؛ وشمّ من عَبير الأزهار المتألّقة ، رياحاً عَبِقة . فاح منها الأرَج ، وأُولِعَت باستنشاقها المهج .

فلمّا انفرط عقد الاجتماع ، ذهب إلى منزله وأثر هذه المحسّات البديعة فى نفسه عظيم ، وما ذهب إلى فراشه حتّى أخذت المعانى تجول فى ذهنه وحرمته النوم . أسرُّ هذا أنّ الحفلة كانت منقطعة النظير ؟ أم أنّ البصر والسمع والشمّ والذوق تآزرت جميعاً لاستذكارها ؟ لا أخفى عليك أنّ الشوق والملاحظة يبعثان فى النفس تشرُّب المحاسن كما تتشرّب الإسفنجة الماء ، أو كما تمتصُّ جذور النبات غذاءها من الأرض ، فيتفرّغ لها العقل ، وتتكيّف من أجلها الخلايا المنوطة بالحفظ والذكر

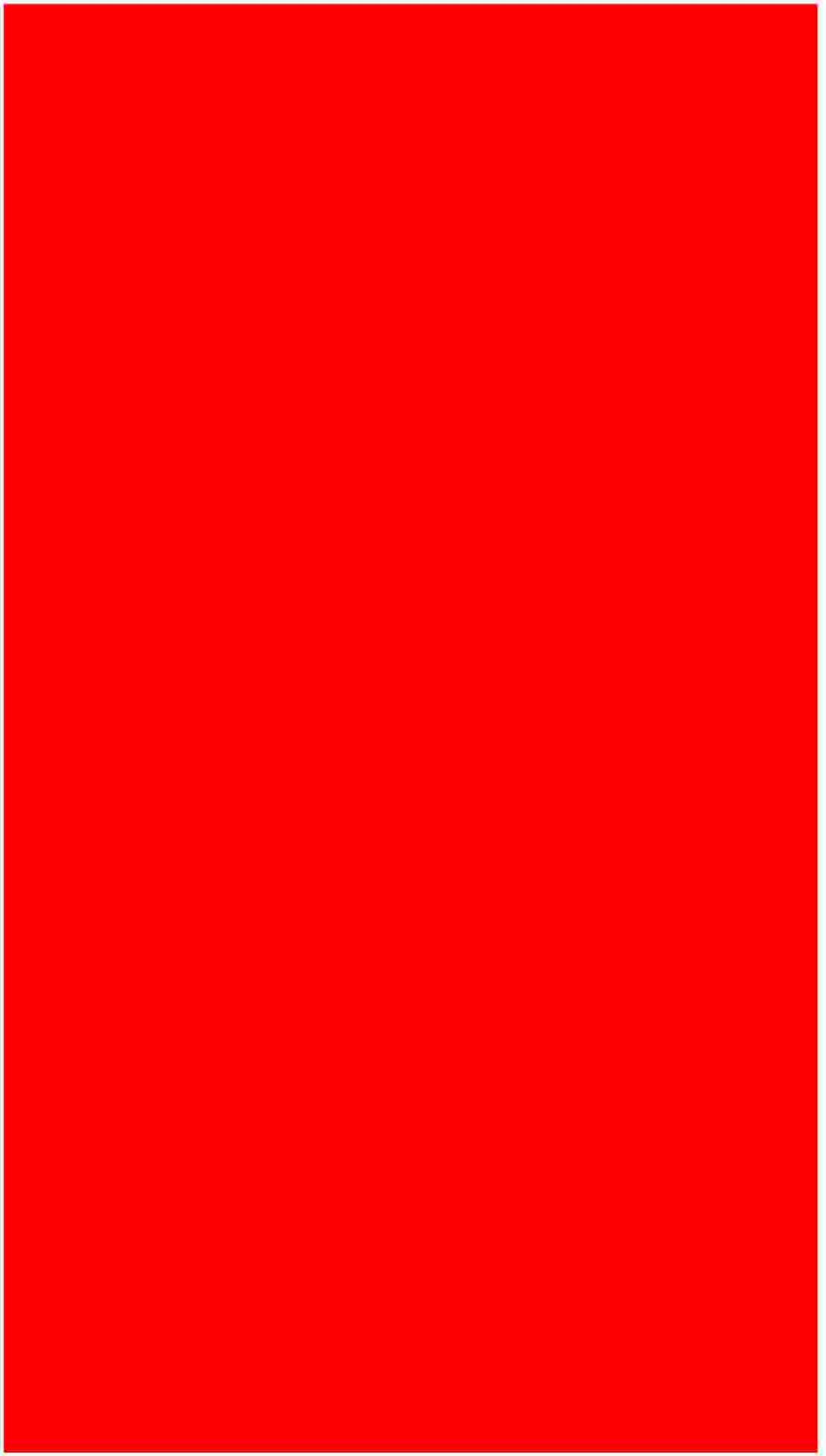

الذهن يحصل برسمها على لفائف المخّ كما تنطبع الصور فى المرآة ، فماذا عسى أن يكون حفظ المسموعات والمشمومات والمذوقات والمعانى التى يضيق بها متّسع العقل فى غضون الأيّام والليالى ؟

النوابغ فى الحفظ والذكر

من الناس من قوّته الفطريّة فى الحفظ والذكر غاية فى الحدّة والمضاء ، كأبى العلاء المعرّىّ ، والأصمعىّ ، وحمّاد الراوية . أمّا أبو العلاء المعرّىّ فافتتن المؤرّخون باستعداد قوّتيه ، حتّى حدّثوا عنه أنّ الأصوات الأعجميّة التى لايدرك معانيها تنطبع فى ذهنه ويستطيع أن يردّدها كما سمعها . وقالوا من غريب حذقه فى قوّة التعريض أنّه حضر مجلس المرتضى فى بغداد فجرى ذكر المتنبّى وكان المرتضى يكرهه ويتعصّب عليه ، وكان المعرّىّ يحبّه ويتعصّب له ، فانتقصه المرتضى وأخذ يتتبّع عيوبه ، فقال المعرّىّ لو لم يقل إلّا قصيدته التى مطلعها « لك يا منازل فى القلوب منازل » لكفاه . فغضب المرتضى وأمر بإخراجه وقال المرتضى لمن حضر : أتدرون لما ذا اختار الأعمى هذه القصيدة دون غيرها من غرر المتنبّى ؟ إنّما عرّض بقوله :

وإذا أتتك مذمّتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنّى كامل

فقدِّرْ مع ذلك قوّة إدراك المرتضى للمغازى البعيدة ، والتلميح الذى لا يَأبَهُ له إلّا فطاحلُ الأدب ؛ والنوابغ فى الحفظ والذكر .

وأمّا الأصمعىّ فكان كثير الحفظ قوىّ الذكر ، إماماً فى اللغة والغرائب ، ويستدلّ الأدباء على حذقه وبراعته أنّه اجتمع مع أبى عبيدة عند الفضل بن الربيع وقد ألّف كلٌّ منهما كتاباً فى الخيل ،

فلما سئل أبو عبيدة أن يقوم إلى فرس ابن الربيع ويسمّى كلّ عضو فيه ، أبى وقال : لست بيطارا ، وإنما أخذت ما كتبت عن العرب . ولمّا سئل الأصمعىّ قام وجعل يضع يده على كلّ عضو ويسمّيه ، ويُنْشد ما قالت العرب فيه . فلما فرغ أعطى الفرس

وأمّا حمّاد الراوية فقد استدعاه هشام بن عبد الملك وقطع فى سفره إليه اثنتى عشرة ليلة راكبًا جملاً مهريّا ، ولما مَثَل بين يديه قال له : إنّما بعثت إليك ببيت من الشعر خطر ببالى لم أدر من قاله وهو :

فدعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة فى يمينها إبريق

فقال فى الحال : هو لِعَدِىّ بن زيد من قصيدة ، وانبرى يُنْشِدُها من حافظته .

قوة الحفظ فى ضبط المرئيات

من الناس من قوّته أضبط للمرئيّات دون المسموعات ، ولا يتذكّر الأصوات إلّا إذا قرنت بكتابة أسمائها أو رسم مسمّياتها . وقد حكى عن أحد البارعين فى فنّ الرسم أنّه زار لندن ليقابل أحد أصحابه فنسى اسمه ، ولكنّه رسم وجهه واستعان بذلك على السؤال عنه.

ومن لم تمنحه الفطرة نبوغًا فى حدّة هاتين القوّتين فحسبه أن يشحذهما بفهم الأمور وترتيبها وتنسيقها وربط أطرافها بعضها ببعض. فإنّ الحقائق المفكّكة الأوصال يكون مثلها فى الذهن كمثل الكتب المبعثرة ، يخزنها جامعها شغفًا بالعلم ، ولكن سوء ترتيبها يجعل الحصول عليها عند الطلب صعب المنال

قال أبو نواس فى وصف الخمر : —

كأنّ صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء درّ على أرض من الذهب

فاعتبر الأدباء المشبَّه به هنا أمراً خياليّا ، وما زالوا كذلك حتّى تزوّج المأمون — أمير المؤمنين — بوران بنت الحسن بن سهل ، وقُدّم إليها ليلة الزفاف حصير نثرت عليه اللآلئ ، فتمثّل المأمون بهذا البيت وقال « كأنّ أبا نواس وهو يصوغ هذا البيت كان حاضرًا معنا ». فهذه الحقيقة البديعة التى صوّرتها قريحة أبى نواس قبل أن تخلق ، لم تكن تأتى إلى ذاكرته لو كان ذهنه مضطربا ، وحفظه ضعيفا ، وذكره على حال لا تستطيع التوفيق بين الأشباه والنظائر .

وممّا يدلُّ على تباين درجات هاتين القوّتين أنّ الناس يسمعون موضوعاً واحداً ، فينقده كلٌّ منهم بحسب ما ركز فى طبعه من الميول إلى الشكل أو اللون أو العلّة والمعلول أو السبب والمسبّب . وقد سمع بشّارُ بن برد أحدَ الناس يفسّر بيتاً من شعره فأعجبه تفسيره ، وقال لراويه : ارو هذا المعنى فوالله ما عنيته

والعبارة تصاغ لتؤدّى معنى خاصًّا فإذا هى تحتمل معنيين أو أكثر ، والقارئ يحتاج حينئذ إلى مراعاة سياق الكلام ليصرف معناه إلى المقصود منها . قال أنس بن مالك : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلّم عشر سنين فلم يقل لشىء فعلته : لِمَ فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعله لِمَ لا فعلته ؟ فيحتمل أنّه وصف رسول الله بالصبر على خلق من يصحبه . ويحتمل أنّ أنس بن مالك وصف نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الأعمال ، كأنّه متفطّن لما فى نفس رسول الله فيفعله من غير حاجة إلى استئذانه .

فما أشبه هـذه العبارة بجسم بلوريّ ذى أسطحة تنبعث منها ألوان جذّابة ، يرى بعض الناس منها ما لا يراه الآخر ، وكلّ منهم يعبّر عمّا أبصرته عيناه وخالج نفسه

يحضر الناس حفلة الغناء ، ويظهرون ما لا قِبلَ لهم به من الانتباه ، ثمّ يخرجون فيترنّم أحدهم بتلحينه على مثال الأصل ، ويتعثّر الآخر فى أذيال الخيبة . فالقدرة على إبراز المحفوظات غير القدرة على صيانة هذه المحفوظات ، ولا سبيل إلى سبر غور قوّة الحفظ إلّا بما تظهره قوّة الذكر الإرادىّ من الأعمال . وعلى مقدار معاناة الذهن التعبَ عند حفظ الشىء يكون رسوخه فيه ، كالمسمار إذا دُقّ فى الجدار ، حتّى إذا ثبت فيه كان استذكاره سهلا . وبديهىٌّ أنّ الإنسان إذا استراح تدفّقت على ذهنه تيّارات الأفكار ، هامّة أو غير هامة ، سديدة أو غير سديدة . أمّا التذكُّر الإرادىُّ فهو مِحَكٌّ العقل تتقيّد به النفس فى دائرة محدودة عند البحث والمناظرة . وإذا جنحت عن الموضوع قام منها رقيب يقود زمامها إليه . وقد خطب سحبان وائل من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ، ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقّف ، ولا تلكّأ ، ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه دون أن يوفّيه حقه . فانظر كيف اكتظّ عقله بحلقات المعانى المتماسكة .

وأحيانًا يهمّنا استذكار أمر ، فننصِب له شِباك البحث ، ونَفرُك الناصية طلبًا له ، ولكنّه يستعصى فنتركه ونذهب إلى موضوع آخر ، وإننا لكذلك وإذا بالغرض الذى كنّا نَنْشده قد رفرف على الذهن .

فالسرُّ فى هـذا أنّ الغرض الذى قصدنا استذكاره قد كان بالموضوع الثانى أكثر ارتباطًا وغابت عنّا حقيقة هذه الرُبُط. وفى الشكل الآتى:

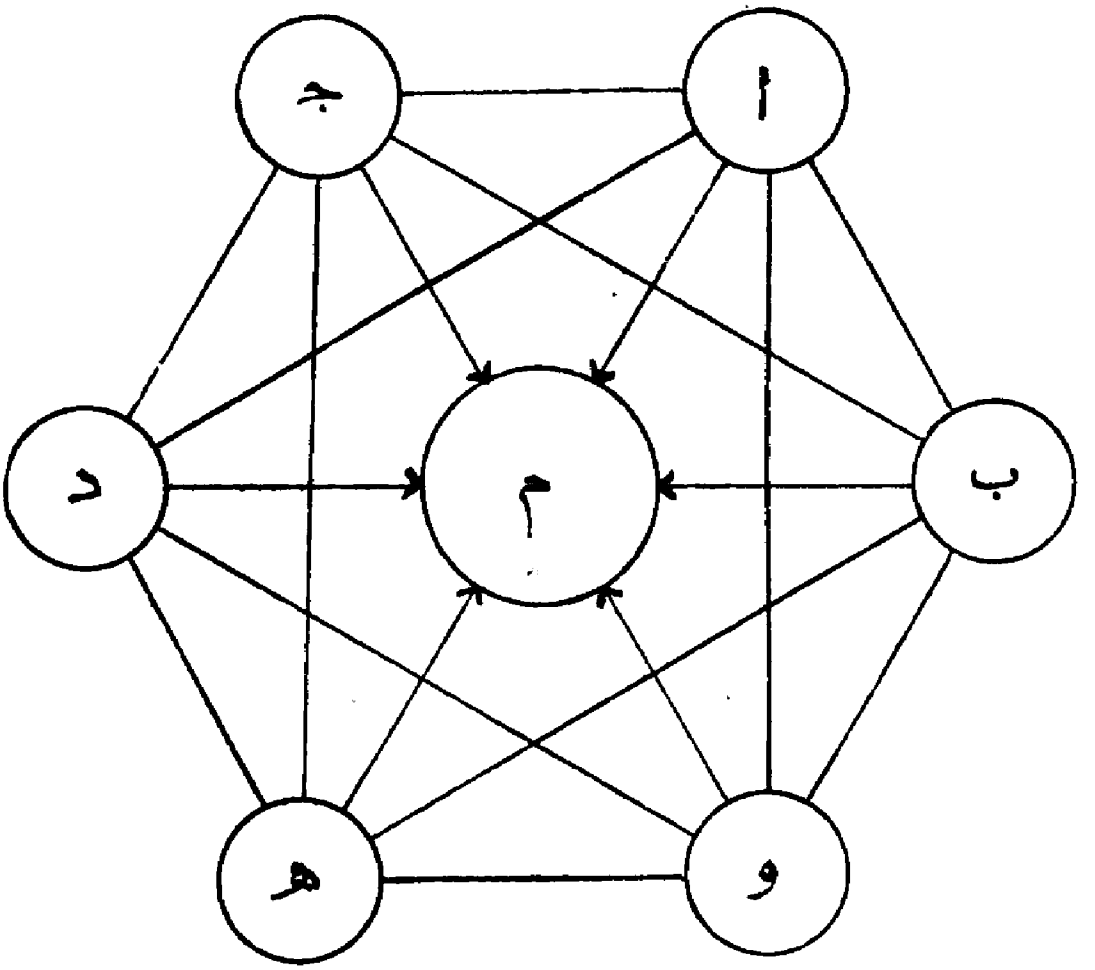

م رمز لمعنى منسيّ ى ا ى ب ى حـ رمز للمعانى المتّصلة به على ما نظنُّ.

فإذا حاولنا استذكاره بها وفشلنا فى ذلك ، وجب علينا أن نبحث عن معان أُخر مثـل و ى هـ ى ، ترتبط بتلك المعانى وبه ، ولا نزال نطيل البحث عنـه حتّى يتحقّق رجاؤنا . كان يحضر طلّابُ العـلم دروسَ وليم چيمس فـكان يجلسهم على ترتيب أسمائهم ، ويناديهم بها ليقرن الأسماء بالمسمّيات . وكلّما قابله أحدهم ولم يتذكّر اسمه استحضر فى

على ترتيبها ، ولا يزال يذكر سبباً بعد آخر حتّى يدرك غرضه .

ومن أجل تسهيل استذكار الأمور فكّر بعضهم فى ضرورة قرنها بما لا ينسى كالرتيمة ، وهى خيط يشدُّ فى الإصبع لتستذكر به الحاجة . وخير وسائل الحفظ الإكثار من الروابط العقليّة .

إذا لم تكن حاجاتنا فى نفوسنا فليس بمغن عنك عقد الرتائم

ولأمر ما يصعب على الفكر أحياناً استذكار عبارة محفوظة ، فتنبرى المراكز الفكريّة للبحث عنها ، طال بها الزمن أو قصر . أردت أن أستشهد بهذا البيت :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

ومع أنّ معناه حضر إلى الذهن فقد ذهبت ألفاظه كلُّها أو بعضها أدراج الرياح . انظر إلى الشكل الآتى تجد المراكز الفكريّة المرموز إليها بالحروف ا ، ب ، ج ، د ، قد أرسلت أشعّة بحثها إلى ما أمكن النطق به وهو الشطر الثانى منه ، ثمّ لبثت فى أخذ وردّ وتأمّل وتنقيب بين الألفاظ والتراكيب ، وبينها وبين المراكز الفكريّة ، حتّى هبطت إليها ألفاظ الشطر الأوّل .

على مثال هذا نصوغ القضايا المنطقيّة لنهتدىَ بها إلى كشف المجهول ، أو نفحص عن الأسباب ، لفهم حقيقة المسبّبات . ولا يكون أملنا عظيماً فى الحفظ والذكر إلّا بعد أن نفهم الأمر ونستجلى غامضه ، ونقيم حوله سياجاً من العلاقات ، ونؤاخى بينه وبين المعانى ، ثمّ نعود إليه أحياناً ونتكلّف استذكاره بالنصّ ، وإذا استعصى فبالمعنى

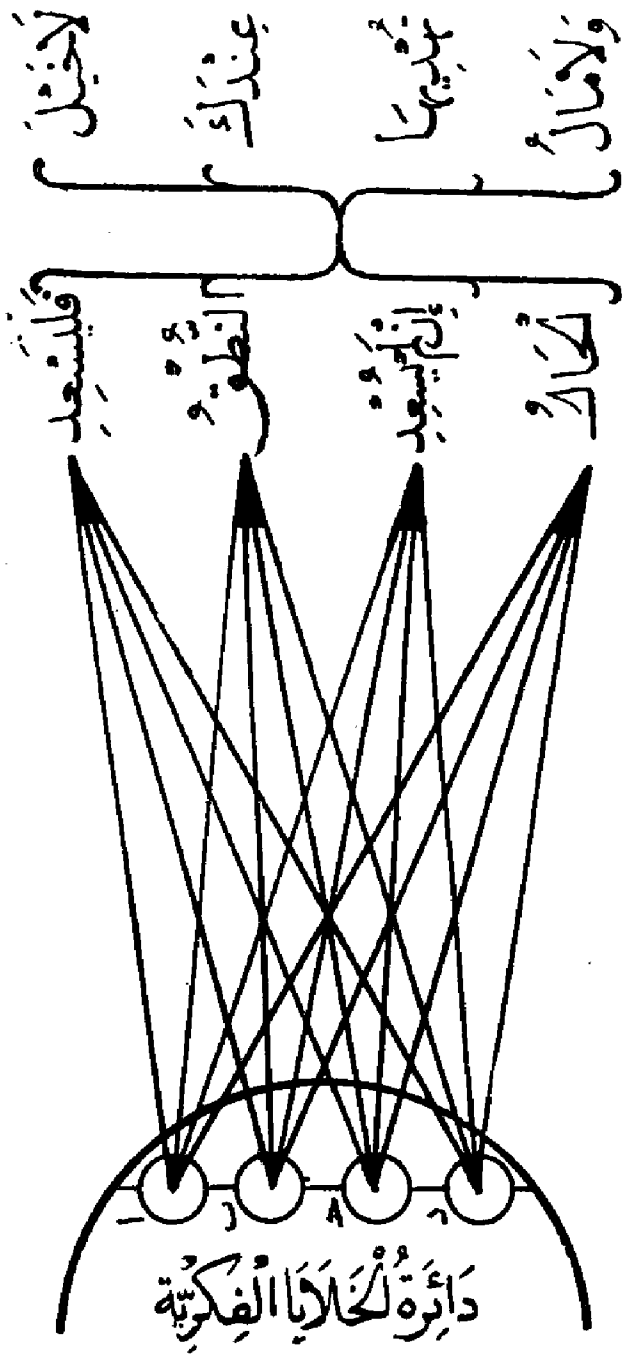

تا الحفظ والذكر
ى أطوار الحياة

إنّ تيّار هاتين القوّتين جارف ، وهو دائماً بين مدّ وجزر ، وسكون واضطراب . ففى عهد الطفولة تكون صفحة الذهن صافية كالمرآة، تنطبع عليها الصور انطباعاً واضحاً لخلوّه من شواغل الحياة وقد ألقى الطفل مقاليد شئونه إلى المشرفين عليه

فإذا جاوز الخامسة والعشرين من العمر ظهرت عليه غالباً بوادر الضعف فيهما ، ويفسد النسيان ما يرجوه من إنجاز الأعمال . وهذا يرجع إمّا إلى كبر السن ، وإمّا إلى اكتظاظ الذهن بالمعانى المتجدّدة ، وإمّا إلى كثرة ما أصابه من المحو والإثبات كلوح الإردواز بعد طول الاستعمال ، وإمّا إلى تلاطم أمواج الأفكار فى ميدان ذى سعة محدودة . والرجوليّة طور تتضاعف فيه المطالب ، وتعظم التبعة ؛ فتتردّد على الذهن المسائل المرتبطة بالمنزل والأولاد ، وبالصرف والإيراد ، ودرس مشاكل الحياة ، وطباع الخلطاء ، ليستفيد من خيرهم ويصون نفسه عن أذاهم ، وكيف يرجى من شخص أحاطت به الشواغل المتنوّعة أن يكون فى مضاء الحافظة والذاكرة كالطفل المجرّد منها ؟ على أنّ المخّ عند الطاعنين فى السنّ كالثوب الخَلَق الذى تقادم عليه العهد ، لا يقوى على أداء عمله على ما ينبغى .

٣) الخيال

هو مَلَكة قِوامها الحَلّ والربط ، وأدنى درجاته ما يُستَذكر من المحفوظات مع التصرُّف بالزيادة أو النقصان ، وأسماه ما جرى تركيبه على غير مثال ، كالصائغ يتصدّى للعناصر فيجمعها ويسبكها فى قوالب أُخر . نرى الطفل لا يريد أن يخضع لغيره ، وأقصى أمانيّه أن يبعد عن مراقبة الناقدين لكى يجد مجال الخيال واسعا . غير أنّ خياله فى هذا الطور طفل مثله ، ليس مضبوطا ولا خاضعاً لسلطان العقل ،

ولذلك كلّفه بعض المربّين مزاولة الحقائق الكونيّة ، وأبعدوه عن قراءة الروايات والخرافات ، فإنّها لا تزيده إلّا انحرافاً عن الحقّ . سأل معلّم تلميذاً أن يذكر مثالاً للدلالة على أنّ الحرارة تمدّ الأجسام فقال التلميذ : « إنّ النهار صيفاً يطول بتأثير الحرارة فيه » فاستعمل القياس ولم يفطن إلى أنّه لا ينطبق على الواقع . ولا تكاد تسمع منه جواباً مثل ذلك إذا ضبط خياله ، ووقف على حقيقة الأسباب لطول النهار صيفاً ، وقصره شتاء

خيال النائم

للخيال فى النوم مجال واسع . انظر إلى الطفل وهو نائم تجده يتخيّل أنّه بين يدى مرضعه ، فتشاهده يحرّك شفتيه كأنّما يرضع ولا ثدى فى فمه . حدّث تارتينى (Tartini) وهو أحد مشهورى الموسيقيّين فى القرن الثامن عشر : أنّه رأى الشيطان فى الحُلم خاضعاً له ، فناوله تارتينى «الكمنجه» وأمره أن يُلَحّن بها فى نوع من الإيقاع حدّده له ، فعزف الشيطان بمهارة فائقة تركت فى ذهن الموسيقىّ وهو نائم أثراً عميقا . ولمّا استيقظ عادت إليه الذكرى من شدّة وقع الصوت فى نفسه ، فأمسك « الكمنجه » وشرع يحاكى تلك النغمة حتّى جاءت مطابقة للأصل ، وكان من أمره أن ابتدع قطعة موسيقيّة سمّاها « عزف الشيطان » . ولولا أنّ ترتينى عبّر عن ذلك الذى هبط عليه فى منامه بأنّه شيطان لتوسّمناه مَلَكا ، ولقطعنا بأنّ السرّ الذى وصل إلى خياله نوع من الإلهام فى الصناعة التى اشتهر تارتينى بها .

ومن تعلّق ذهنه بأمر لا تهادنه الوساوس والأخيلة فى شأنه

مستيقظًا كان أو نائما . حتّى لقد رأى بعضهم فيما يرى النائم أنّه يقاسى من العذاب أشَدّه ، ولمّا استيقظ تبيّن له أن رجليه لامستا شيئًا حارًّا. وكثيرًا ما يُخيّل له حُلمه المفزع أنّ كابوسًا يضايقه، ثمّ يعرف سبب ذلك أنّه كان نائمًا على جانبه الأيسر ممتلئ المعدة بالطعام. ومفسّرو الأحلام يطلعون الحالم على نوع العمل الذى بات ذهنه مشغولاً به . فقد رُوىَ أنّ مملوكًا مَثَلَ بين يدى سيّده الملك مدهوشا . وكاشفه بأنّه رأى فى منامه أنّه يسفك دم الملك ، وأقام له الدليل على أنّه خادم أمين ، ففزع الملك ممّا قصّه عليه وقال له : « لو لم تكن فكّرت وأنت مستيقظ فى شىء من هذا ما رأيته فى الحُلْم » ، وأمر به فقتل . تهيّأت للنوم يومًا وتباريح الحزن تناوئ ذهنى لوفاة ابن لى ، فرأيت فى الحُلْم كأنّ حاديًا يغنّى بصوت المحزون ، فبكيت ثمّ استيقظت وعيناى مغرورقتان بالدموع.

الخيال فى اليقظة

وكما يعرض الخيال للنائم يعرض للمستيقظ ؛ والقارئ متى فرغ من قراءة بعض الحوادث المفزعة . يغوص ذهنه فى بحر من الخيال لتصويرها . وإذا أخذ مجلسه فى مكان هادئ ، وتشاغل عن شئونه ، وسمح للخيال بالجولان ، فسرعان ما يسرح فى الفضاء ، ويبنى القصور فى الهواء ، ويسلّى نفسه بإدراك الأمانىّ ، وعدوّه المبين هو الذى يقطع سلسلة هذا الخيال الشهىّ .

ومن الناس مَنْ يصوغ الخيال قضاء لأربه ، ثمّ ينقلب مزاجه فيحسبه صدقا ، فإنّ أشعب كان يؤلمه أن يجرى الصبيان وراءه مُصفّقين استهزاء به . رآهم على هذه الحال يوما ، وأراد أن يصرفهم

عنه ، فالتفت وقال لهم على سبيل الخيال : « ألم تعلموا أنّ فى جهة . . . ثريّا يسدى المال إلى كلّ من دخل منزله » فتركه الصبيان وأسرعوا إلى منزل ذلك المثرى . فلمّا رآهم ذاهبين إليه وقع فى نفسه صدق هذا الخيال فعقّبهم .

حاجة العالم الى الخيال

والطبيعيّون يعتقدون أنّ الخيال دليل الباحثين ، ولم يمهدوا منقّباً وصل إلى حقيقة مجهوله إلّا بعد حَدْس وتخمين . والناس على بكرة أبيهم يرون البخار الصاعد من القدر الغالية بقوّة ترفع غطاءه مهما كان ثقيلا ؛ ولكنّ وات Watt وحده بما أوتيه من بارع الخيال استنجد بهذه القوّة لإدارة الآلات فنجح . ويتّخذ الرياضيّون والسياسيّون طرقاً فرضيّة لحلّ المشاكل ، ثمّ يَحْسُبون نتائجها ويدخلون بها فى طور العمل على سبيل التجربة ، ولا يزالون يتخيّلون الوسائل ويمحّصونها من الشوائب ، وينصرفون عمّا تجرّ إليه من الخطأ ، فإذا الحُجُبُ تَتَكَشَّفُ عن مكنون الحقائق .

الحقيقة ضالّة الفلاسفة يحرصون عليها فى مدوّناتهم ، وينتقون لمدلولاتها العبارات المتينة التى لا تدع للّبس مجالا ، ويحترسون من تزويق الألفاظ وتنميق الأساليب ، فإنّهما يبعدان عن فهم المقصود . وهى كذلك أساس المعاملات ، فالتاجر لا ينصف المشترى إذا بالغ فى وصف سلعته وجاوز به حدود قيمتها ، والطبيب يسىء إلى المريض إذا استعار للدواء اسم دواء يشبهه ، وتضيع الثقة من المؤرّخ الذى يمجّد من لم ترفعهم أعمالهم . وكم تثور الفتن ويضطرب بين الحلفاء حبل

الولاء إذا راج سوق الخيال فى نصوص المعاهـدات ، فإنّه يخرج مدلولات الألفاظ عن سياج المعاجم اللغويّة ، وإليها وحـدها يرجع الأمر عند ما تستحكم حلقات النزاع .

حاجة الاديب إلى الخيال

أمّا الأدباء فعلى عكس هؤلاء لا يعذب عنـدهم ماء القول إلّا إذا طرق أبواب المجاز والاستعارة فى أمور تحتاج إلى الفراسة وصدق النظر . ورد فى هـذا أنّ النبىّ صـلّى الله عليه وسلّم قال لأزواجه : « أَطْوَلُكُنَّ يَدًا أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِى » فلمّا مات عليـه السلام جعلن يطاولن بين أيديهنّ لينظرن أيّتهن أطول يدا ، ثمّ كانت زينب أسرعهنّ لحاقا به وكانت كثيرة الصدقة ، فعلمن حينئذ أنّه إنّما أراد المعنى المجازىّ . وكذلك قول المتنبّى :

راميات بأسهم ريشها الهـد ب تصيب القلوب قبل الجلود

فالمطّلع على الشطر الأوّل لا يدرى أإلى الحقيقة سار الشاعر أم إلى المجـاز ، ولا يكاد ينتهى من قراءة الشطر الثانى حتّى يعرف أنّ الغرض بالأسهم تلك العيون النجلاء على سبيل التجوّز .

فالخيال يصون الصنعة من الابتذال ، وينفخ فى القول والعمل روحا فيّاضـة ، ويشحذ الذهن ، ويدعو إلى الإمعان وترداد النظر ، ولو جفّ معينة من الكتابة أو الشعر أو التلحين لذهبت مَسْحَة البلاغة ، ولتجرّدت من العوامل الحيّة فى تحريك الهمم وإثارة الخواطر . كان ابن الرومىّ وحيد عصره فى الشعر . فقال له بعضهم : « لِمَ لا تشبّه

تشبيهات ابن المعتزّ وأنت أشعر منه » . فقال : « أنشدونى شيئاً من شعره » فأنشدوه فى الهلال

وترى الهلال كزورق من فضّة قد أثقلته حُمُولَةٌ من عنبر

فقال : « واغوثاه لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها . ذاك يصف ماعون بيته وهو ابن خليفة ، وأنا أىّ شىء أصف »

فما أحوج الخيال البليغ إلى المرئيّات يستحضرها الشاعر ويصوغها بحسب اقتداره ومهارته فى الصناعة ، بحيث يجمع الأشكال المتشاكلة فى سمْط ، ويُسْبِل عليه ثوباً قشيباً من البلاغة تهتزّ منه النفس فرحا

إليك حمدونة الأندلسيّة ذهب بها الخيال عند وصف الحصى فى الوادى مذهباً أجادت فيه وبرّزت إذ تقول : —

تروعَ حصاه حاليةَ العذارى فتلمِس جانب العقد النظيم

ووصف المتنبّى صبره وأجاد فى خياله حيث قال : —

رمانى الدهر بالأرزاء حتّى فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسّرت النصال على النصال

وأبو العلاء المعرّىّ وهو كفيف البصر ، قبس من نور الطبيعة ما جعل ذهنه سيّالا فى سبك الخيال بدرجة يعجز عنها المبصرون . وشعره حافل بمثل هذا الخيال الرائع . وقد راقنى تشبيهه البرق فى سرعة تألّقه بذى العين القريحة وقد غلبه النوم ، يفتحها بدافع المرض ويُغلقها حبًّا فى النعاس ، وهكذا يتعاقب الفتح والإغلاق على وجه السرعة . ووصف طلوعَ الفجر بالشيب ، والشفقَ بالزعفران ، وادّعى على سبيل

الخيال أنّ الليـل يميل إلى النجوم الزهر ، فلمّا شاب بطلوع الفجر ، خاف هجر النجوم والهجر شيمة الغوانى، فوارى شيبه بخِضاب الزعفران أى الحمرة التى تبدو مع الفجر . وخياله من السلاسة والغرابة يجرى على هذا النسق ، مع أنّه كُفَّ بصره وهو فى الرابعة من عمره ، وهذه المدّة على قصرها زوّدته بالمشاهدات، فلبث يستمدُّ منها فى شعره طَوال عمره .

٤) العقل

هو ملكة تدبّر الحركات الإراديّة من أىّ نوع كانت. وقد فصّلنا القول فى أنّ الغرائز تُهَيْمِن على الجسم وتقود الإنسان ليعمل العمل بلا رويّة ، وتكون غالباً نتائجه سـديدة مفيدة ، ولكنّ الخلقيّين لا يعوّلون على هذا النفع ، ولا يثيبون الإنسان من أجله ، لأنّه جاء مصادفة لا من طريق المقدّمات المنطقيّة. وذلك كاندفاع من لا يحسن السباحة إلى البحر لانتشال مُشرِف على الغرق ، وكسعى الأمّ لتخليص ابنها من مخالب الخطر .

وقد بذل دارْوِنْ جهده مثبتاً بالمشاهدة أنّ للحيوان الراقى عقلاً مستفاداً من الخبرة الذاتيّة وإن يكن أدنى من عقل الإنسان . رأى فى حديقة الحيوان بأمريكا قردين فى قفص واحـد : أحدهما مُسِنٌّ والآخر صـغير . وكان المسنُّ لا ينفكُّ يؤذى الصـغير كلّما بَصُر به ، وأينما التقى معه . وبينما كان الحارس يكنُس القفص انقضّ عليه القرد المسنُّ والتقم قفاه ، وكاد يذيقه الموت لولا أن خلّصه منه القرد الصغير ،

فقد عضّه فى ساقه عضّة أنسته صوابه ، وأرجعته عن العدوان . إذا التمست سبب هذا تبيّن لك أنّ إشفاق القرد الصغير ليس من مجرّد رؤية القرد الكبير يفترس الحارس ، بل لا بدّ أن يكون فكره قد صاغ من مستودعات الحافظة قضايا هى أنّ القرد المسنّ اعتدى على شخصه من قبل ، واعتدى على الحارس الآن ، فهو مؤذٍ معتدٍ يجب الخلاص منه . فلمّا حانت الفرصة وشُغل القرد المسنُّ عن نفسه هجم عليه القرد الصغير ، وانتقم منه انتقاماً يدلُّ على أنّ إبرازه ليس غريزيّا ، وإنّما أراد ذلك ليقفه عند الحدّ الذى تتطلّبه دواعى الاجتماع .

تدرج فى تأليف القضايا

فهذه القضايا التى ارتبط بعضها ببعض قد أثارها إحساسه ووجدانه الشخصىُّ والاجتماعىُّ ، وهى كالقضايا الأوّليّة التى نشاهدها فى الطفل . نراه يمسك اللُعبة بإحدى يديه ، وإذا رأى مع غيره لُعبة أخرى يبكى ، وإذا أُعطى إيّاها يسرّ . فنفهم من هذا قضيّة بسيطة هى أنّ نفسه تشتاق الكلّ أكثر من الجزء ، وتعلم أنّ الجزء أقلُّ من الكلّ قيمة ومقدارًا وإن كان لا يتنبّه للتعبير عن ذلك . نراه إذا أراد القعود وألزمته الوقوف يبكى وينزع إلى القعود . فكأنّه صاغ قضيّة مضمونها استحالة اجتماع الضدّين : القيام والقعود فى زمن واحد . نراه ينازع غيره فى المكان الذى يريد القعود فيه ، لأنّه يعلم أنّ الجسمين لا يحلّان فى مكان واحد . نراه يمشى إلى الشىء الذى يريده ، لأنّه يعلم أنّ الوصول إليه ممكن . نراه يسأل عمّا لا يعرف ،

ومتى شُرِح له سكت واقتنع ، لعلمه أنّ للأشياء طبائعَ وحدوداً ومميّزات . ونراه يسأل عن فاعل الفعل ، ولا يقتنع بأنّه جاء بلا فاعل وهكذا . ومتى كبر استعان بتلك القضايا البديهيّة على صوغ القضايا النظريّة ، وحاول إبداء الحكم فيها . ومتى اتّسع نطاق عقله ، وازدادت مراسته ، تجده يتئد ولا يتسرّع فى الحكم ، بل يعرضه على بساط البحث ، ولا يؤلمه أن يوسمه الناس انتقادا ، ولا يمتعض إذا جاء حكمهم مخالفاً لحكمه ، وظهر رأيهم فيه أضبط ، وحكمهم أسدّ ، لأنّه حينئذ يهمّه الوصول إلى الحق ، ولا يبالى أوَصَل إليه بنفسه أم شاركه غيره فى تمحيص المسائل ، وإزالة غشاوة الباطل عنها .

وهكذا يصوغ العقل بمعونة الملكات الذهنيّة ما شاء من القضايا العامّة المستنبطة من المحسّات ، ويحتفظ بها ، ويذكرها عند الحاجة . فما أوسع الجمجمة على صغرها ! لأنّ العقل جمع بها شوارد المسائل ، حتّى يصحّ أن يقال : إنّ الإنسان عائش بعقله فى جوّ روحانىّ فسيح الأرجاء . وإذا كان فى هذا مُثار دهشة المتأمّل ، فأبدع منه أن جرثومة الحياة على نهاية صغرها تسع ألوفاً من الصفات الموروثة من الآباء والأسلاف .

٥) الوجدان

إنّ المحسّات التى تصل إلى الذهن إمّا أن تدعو إلى الفرح والجذل ، وإمّا أن تدعو إلى الغمّ والملل ، وهذا الأثر هو ما نسمّيه بالوجدان .

سل ضميرك لما ذا يتسرّب إليك السرور إذا قابلتَ صديقاً حميما . وسل المهموم لما ذا يمتعض من الغمّ ، وتظهر على محيّاه ملامح الكآبة. ولو التمست سبباً لذلك لوجدت أنّ الارتياح فى الأمر الأوّل والألم فى الأمر الثانى كفيلان بهذه النتائج .

نعم للعقل شأن كبير فى ترجيح وِجدان على آخر ، لأننا نرى الطفل إذا مرض ونصحه الطبيب أن يتعاطى الدواء يأنف أن يلبّى الطلب ، لأنّ العلاج له طعم مهوّع لا تسيغه نفسه وليس لعقله سلطان عليها .

ولكنّ الرجل الذى يقدّر الأمور بعواقبها ، لايجعل للطعم المهوّع نفوذاً على وجدانه ، فيُقبل على تنفيذ إرادة الطبيب عن رغبة فيها ، لأنّه يتّقى به وطأة المرض ويدفع به غائلة العلّة .

وقد يسود المزاجُ النفسىُّ حكمَ العقل ، فتجد المتطيّر يحزن ممّا اتّفقت العقول على أنه داعى الفرح . قال المعرّىُّ وهو من غلاة المتطيّرين :

ضحكنا وكان الضحك منّا سفاهة ... وحقّ لسكّان البسيطة أن يبكوا
تحطّمنا الأيّام حتّى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبكُ

ولأبى الطيّب المتنبّى :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل ... عمّا مضى منها وما يتوقّع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ... ويسوقها طلب المحال فتطمع

وتجد المتفائل يفرح ممّا يحزن منه الناس غالبا ، وتنطبع طلائع

البشر على صفحة وجهه ، وتصيبه الحوادث الجسام فلا تلتوى قناته ، ويسالمها ليستخلص منها لنفسه نصائح وحكما وعبرا . ولا يعبأ بتقلبات الأيام ، لأنه يعتقد أنّ الدنيا مسرح تغدو عليه الناس وتروح، ولكلّ امرئ منهم شأن يطلبه ، حتّى إذا أرخى الليل سدوله نامت العيون ، واستراحت النفوس . وإذا انتهى العمر استعاض عن هذه الحياة حياة أبقى وأهنأ .

هذى الحياة رواية لمشخّص   الليل ستر والنهار الملعب

علاقة الوجدان بالحركات الجسمية

ولا تجد مظهرًا لترداد الفرح والحزن متعاقبين كطلعة المقامر ، يخسَر الصفقة فيكتئب من ألم الحزن ، ويربح بعد ذلك فيبشّ من بسطة الفرح ، ويستطيع الناظر أن يعرف هاتين الحالين بمجرّد الاطّلاع على وجهه . وبذلك نطق لسان الشعر فقال :

« نظر العدوّ بما أسرّ يبوح »

« متى تك فى صديق أو عدوّ   تخبّرك الوجوه عن القلوب »
« والعين تعرف من عينى محدّثها   إن كان من حزبها أم من أعاديها »
« الودُّ لا يخفى وإن أخفيته   والبغض تبديه لك العينان »
« لا تسأل المرء عن خلائقه   فى وجهه شاهد من الخبر »

وللبارودىّ

ربّ خلّ تراه طلق المحيّا   وهو جهم الضمير بالأحقاد
فتأمّل مواقع اللحظ تعلم   ما طوته صحائف الأكباد
إنّ فى العين وهو عضو صغير   لدليلًا على خبايا الفؤاد

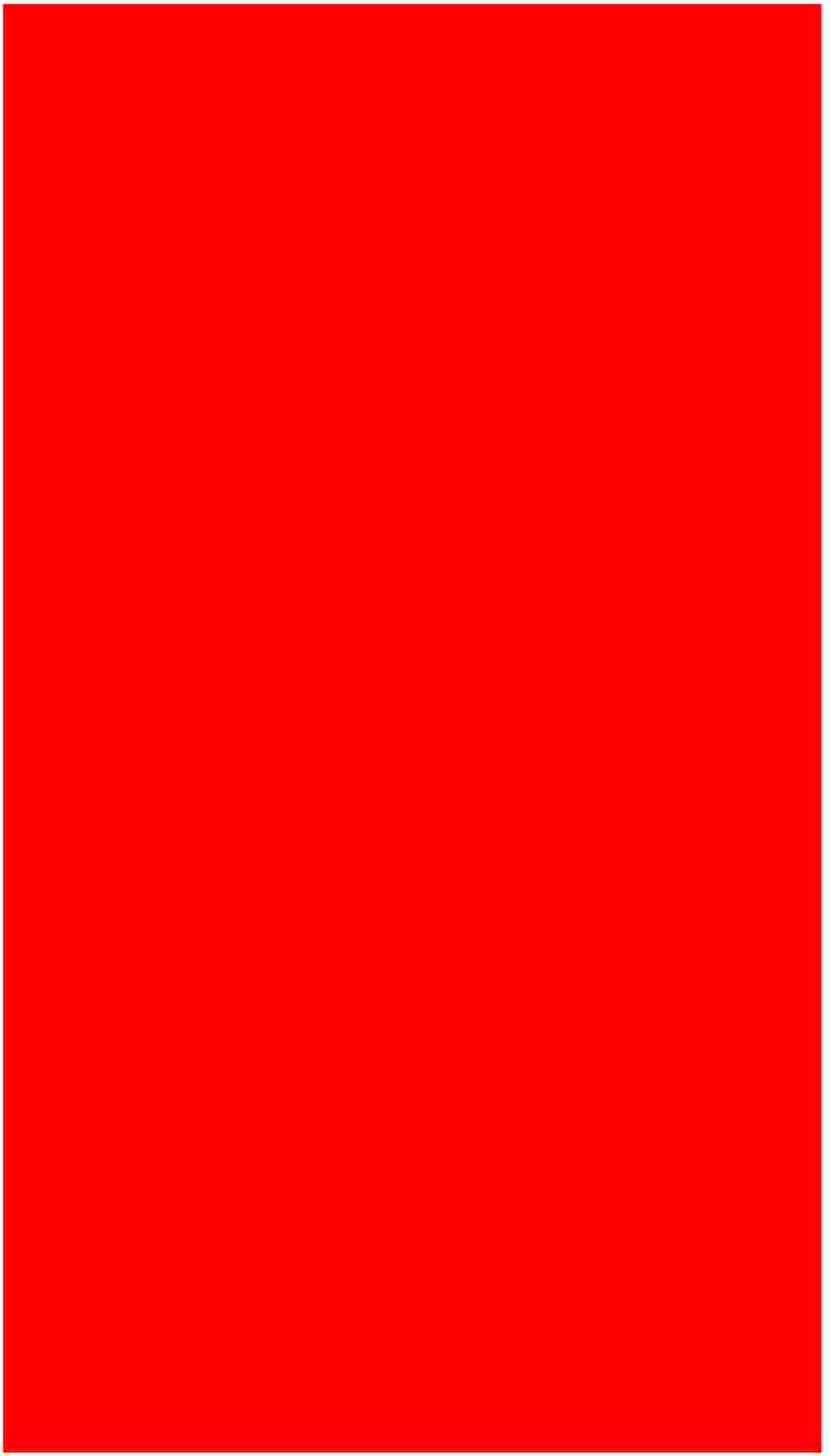

الدهشة ، وتدلُّ الرجفة على الفزع ، وربّما بدا الضحك عند الاحتقار أو الضغينة ، وصادق النظر لا يخطئه ، لأنّ تكلُّفه يُخرِجُ الصوت فاتراً مكذوباً . وأحياناً يحصل البكاء من فرط السرور

يا عين قد صار البكا لك عادة تبكين من فرح ومن أحزان

ودبيب الأقدام يرشد كذلك إلى تعرُّف أحوال النفس . فخطا اللص والجبان والشجاع والمجرم تخبر عن الحقيقة ، حتّى لقد عرف لازوغلى[1] كيف يصدر حكماً عادلاً فى حادثة خفى فيها المجرم : أمر المشتبه فيهم فأُحضِرُوا ، ودعاهم جميعاً إلى دخول مجلسه والخروج منه عدّة مرّات وتفرّس فى أمرهم ، ثمّ استدعى واحداً منهم وحصر فيه التهمة وما أخطأ ، لأنّه رآه آخر الداخلين إذا دخلوا . وأوّل الخارجين عند ما يخرجون . وللمتحسّسين للآثار دراية دقيقة فى هذا الباب

كذلك تُعرِب نَبَرَات الصوت عن كثير من الأغراض كالحماسة والفخر والخضوع والاستعطاف والخوف. وللامّهات الذكيّات معرفة بأحوال الطفل يستطلعنها من صوته عند بكائه ، فإنّه يعرب أحياناً عن امتعاض من ألم أصابه ، وأحياناً يرشد إلى أنّه جوعان أو عطشان . ولقد أجاد المتنبّى إذ يقول : —

إذا اشتبهت دموع فى خدود تبيّن من بكى ممّن تباكى

(١) هو ممن خدموا محمداً علياً باشا والى مصر وافتدوه بالأرواح . وهو الذى دبر القضاء على المماليك فى ساعة واحدة .

تخلف الحركات الجسمية عن دلائل الوجدان

هذه الأعراض البدنيّة النفسيّة متلازمة غالباً . وقد تتخلّف عند كبار المفكّرين الذين يضبطون حركاتهم ، ويخضعونها للإرادة . فتراهم يضحكون فى معرض البكاء متغافلين عن دعوة الوجدان ، وكذلك تتخلّف عند البُله الذين يجهلون حقائق الأمور

رَوَى التاريخ أنّ أبا مسلم الخراسانىّ — وهو الرجل الفذّ الذى أمات الدولة الأمويّة وأحيا الدولة العباسيّة — كان لا يلعب بقلبه السرور ، ولا يستفزّه الغضب ، يأتيه نبأ الفتح العظيم فلا يظهر على محيّاه أثر السرور ، وتنزل به الفوادح فلا يرى كئيبا . كذلك كارلايل وَصَفَ بِيرَنز الشاعر بأنّ المصائب كانت تُصَبُّ عليه مدرارا . فينثرها عنه كما ينثر الجواد الماء عن شَعره . ولا أنكر عليك أنّ التصنّع من هذا القبيل مخالف للطبيعة البشريّة ، ومهما خضع الإنسان لتصرّفات الإرادة فإنّ الحقيقة التى اختفت فى الصدور توشك أن تظهر دلائلها وإلى هذا يشير الحديث : « من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها » ، حتّى إنّ المجرمين يقترفون الآثام بعيدين عن أعين الرقباء ، وأنفسهم وحدها هى التى تفضح ما كتموه

وبعيد عن الكاتب البليغ ، والشاعر المطبوع ، والمصوّر الدقيق ، أن يصيبوا كبد الحقيقة فى التأثير النفسىّ ، ما لم يدرسوا العواطف والحركات البدنيّة الملازمة لها ، والمؤثّرات التى من شأنها تحريك الهمم الفاترة ، والعزائم الخامدة .

إذا عرفت هذا سهل عليك معرفة التلازم بين الحركات الفكريّة

والجسميّة، وقد صُوِّر هذا التلازم بأمور : فإمّا أنّه سلسلة من الحركات الفكريّة التى تضمّ حركات الإدراك والوِجدان والإرادة والحكم والإنفاذ ، ويقابلها سلسلة أخرى حسيّة تنجم من تأثير المنظورات فى الحدقة والشبكيّة ثمّ فى أعصاب البصر والخلايا المخّيّة فالغلاف الأسمر الحسّاس ، ثمّ يتدلّى إلى أعصاب الحركة فالعضلات فالأعضاء المنفذة كما فى ا من هذا الشكل ؛ وإمّا أنّه سلسلة من الأمور الحسّيّة يتلوها من الجانبين نظام روحانىّ ، كأنّ الحسّ بحر ذو شاطئين من القوى

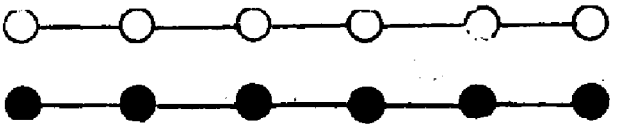

ا

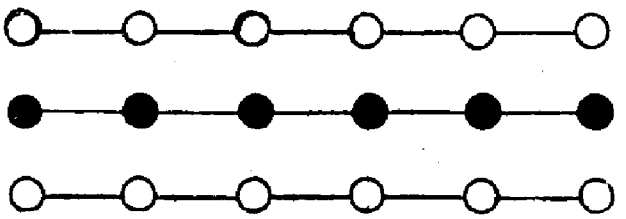

ب

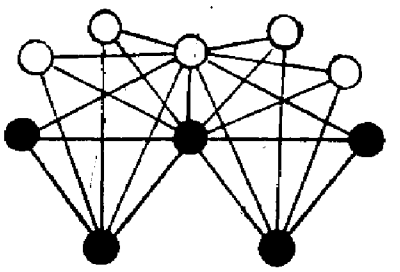

جـ

○ الخلايا الروحية

● الخلايا المخّيّة

الروحانيّة كما فى ب ؛ وإمّا أنّ العاملين : الحسّىّ والروحانىّ يعملان معاً فى آن واحد ولا فاصل بينهما ، غير أنّ التأثير ذو وجهين حسّىٌّ ويؤثّر فى الجسم ، وروحانىٌّ ويؤثّر فى العقل كما فى ج

مذهب هربارت فى القوى الذهنية

اتّبعت فيما سبق شرحه مذهب السلف فى أنّ الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والفكر كلّها مَلَكات . وأذكر هنا ـ تكميلا للفائدة ـ ما ذهب إليه هربارت ؛ فإنّه اعتقد أنّها إذا كانت مَلَكات أمكن كلاً منها أن يقوم بنفسه ، ولكنّنا حين نعالج الحفظ مثلاً نسعى لتقويم الملاحظة والإحساس والخيال والفكر ، وحين نريد تقويم الخيال نتطلّع إلى تقويم القوى الأخرى ، لذلك اختار أن يسمّيها صفات ليستفاد منها معنى المشاركة . ووراء ذلك اعتقد أنّ المخّ يحتوى على قوّتين حسبُ : قوّة التأثّر بالمحسّات ، وقوّة دموج المدركات .

فقوّة التأثّر بالمحسّات تتولّد منها المعانى والأفكار على نظام طبيعىّ . فإذا ائتلف جديدها وقديمها ارتبطا معاً ورسخا فى الذهن ، وإذا تنافرا عارض أحدهما الآخر . وأفضى ذلك إلى بقاء الأنسب .

وقوّة دموج المدركات مثلها كمثل قوّة هضم الأغذية، فكما أنّ الطعام بهذه القوّة يستحيل إلى دم ، كذلك المعانى بتلك القوّة تتآخى وتتآزر ، ويزيل بعضها غشاوة الآخر فتمتزج معاً فى مادّة معنويّة ، يُسيغها الذهن ويمتصّها المخّ كما تمتصّ الإسفنجة الماء ، وتتوقّف عليها

الحياة العقليّة ، وبها تتفاوت مقادير الأشخاص . والذهن حينئذ بمعونة الحواسّ يدرك العالَم الخارجيّ ، ويستعين بسابق خبرته على تمحيص الأمور . إنّ منظر البلد من بعيد يراه الشاعر والنباتيّ والمصوّر ، ولكنّ مدركاتهم عنه تتفاوت بحسب ما ركز فى ذهنهم . والشمس فى طور الكسوف لا تترك فى ذهن الطفل ما تتركه فى ذهن العالم ، الذى يصوّب إليها نظره ويتريّث حتّى يستذكر ما قرأه عنها ، فيعرف أنّ القمر حال بينها وبين الأرض فى أثناء دورانه فحجب ظلّه ضوءها عنّا ، وهى فى ذاتها لم تتغيّر ، وهى وحركات الكواكب خاضعة لقوانين يعرفها الفلكيّون ويعيّنون منازلها بالحساب الدقيق ، ويبنى المنجّمون عليها أحكام السعود والنحوس . ثم لا يقف ذهنه عند هذا الحدّ فقط ، بل يتجاوزه ، فيذكر عقيدة القدماء بأنّها كانت معبودا ، وأنّها لفرط سموّها ، وعلوّ قدرها ، كانت الشياطين تحاول أن تغتصب نورها فتتوارى عنهم ، كما كانت تتوارى إذا انفرط فيما بينهم عقد المودّة والولاء ، معلنة عليهم غضبها بالكسوف . حدّث التاريخ أنّ الميديّين والليديّين اختصما ، ودبّت بينهما عقارب الخلاف ، فامتشقا الحسام ، وما كادت لظى الحرب تستعر بينهما حتّى أظلم الجوّ نهارا ، ولبست الشمس ثوب الكسوف حداداً على مافعلاه فاعتقدا أنّ إلههما غضبان من هذه الفتنة ، فأغمدا السيوف ، ونشرا لواء السلم .

هذه الأفكار المتناسقة التى جادت بها قريحة المفكّر عند ما أبصر ناظره الشمس فى طور الكسوف ، ارتبطت لحمتها بسداها ،

وكوّنت أمرًا كليًّا لبحث الشمس وجولان العقول البشريّة فى أمرها من أعصر السذاجة إلى زمن العلم والمدنيّة .

تداعى[1] المعانى

عرفت كيف تلتئم المعانى إذا تآزرت ، وكيف يدعو بعضها بعضاً لمناسبات تعرض بين الناس عندما يتجاذبون أطراف الحديث ، حتّى إذا انتهى وبحثت عن الصلة التى بين آخر الحديث وأوّله أخذمنك العجب مأخذه .

جلست مع طائفة من أهل الأدب ، وكان الحاكى حينئذ يرتل آيات الذكر الحكيم . فعجبنا من براعة صنعه ، وحسن إيقاعه ، ومتانة نبراته . ثمّ فتح أحد الجالسين أبواب الاستطراد ، فسأل عن اللهجة التى كان السالفون يقرءون بحسبها . فإذا كانت صلتنا بهم فى هذه الحال قد انقطعت فيجب علينا أن ننتهز الفرصة ، فنذّخر فى أسس الأبنية الأثريّة أسطوانات الأصوات والأغانى المصريّة ، لتقف الأجيال القادمة على الرقّ الذى وصلنا إليه . واستطرد آخر بأنّ أغانى هذا الجيل هى من مبتدعات المجيدين الذين برعوا فى الخيال ، فألّفوا بين الإيقاع المصرىّ والتركىّ ، واختاروا من مزيجهما نغمات تسترقّ النفوس . وقال آخر قد وصلت إلينا أدبيّات العرب فى الجاهليّة والإسلام ولم تصل إلينا لهجتهم فى الإنشاد ، ولا علمنا كيف كانوا يترنّمون بالشعر وبالنثر . وهل كان إبرهيم بن المهدىّ العباسىّ يُوقعُ

(١) مأخوذ من تداعى الناس على فلان اذا تألبوا عليه واجتمعوا

الألحان على النهج الذى نطرقه الآن ؟ وهـل كان المغنُّون إذ ذاك يرجّعون الالفاظ ، ويكثرون دورانها على النغمات على عادة مغنّى هذا العصر ؟ وتكلّم آخر فى علاقة اللغة العاميّة بالأغانى إلى آخر ما ذكروا ، ولم يكن يدور بخلد واحـد منّا أنّ مبدأ الحديث يصل بالجالسين إلى هذه الغاية . وهذا سرٌّ من أسرار تداعى المعانى .

رأيتَ من هـذا البيان أن روح الحديث كانت دائرة حول موضوعات أدبيّة لعلاقتها بالجلساء وهم من أهل الأدب ؛ ولو جالستَ أناساً من أهـل الترف والنعيم لرأيت حديثهم فى المطاعم والملابس وركوب الجياد ؛ ولو أخذت مجلسك بين التجّار لرأيت حديثهم مقصوراً غالباً على البيع والشراء والسلع الرائجة والكاسدة وهكذا ، فالاستطراد لا يكون عامًّا بل جارياً على وَفق الميول والأغراض التى تهمُّ الجالسين ، حسّيّة كانت أو معنويّة ، وهى على العموم تتّبع قانون المناسبات ، إذ يشعر الإنسان وهو جالس فى حفلة زينة أنّ ذوقه وأميالَ الحاضرين يمنعانه أن يستطرد بذكر حفلة مَناحة . وللأغراض المتنوّعة دوائر فى الذهن مكتظّة بالمعانى المتشاكلة ، إذا عرضت طائفة منها أيقظت أشباهها وألصقَ الأمور بها من الدوائر الأخر . وقد ترد الألفاظ المحتملة للمعانى ، فيؤوّلها السامعون بما يلائم هواهم على نهج أسلوب الحكيم .

قالوا : إنّ القَبَعْثَرى كان جالساً مع أصحابه فى بستان تحت كَرْم ، ثمّ جرى ذكر الحجّاج ، فقال القبعثرى : « اللهم سوّد وجهه ، واقطع عنقه ، واسقنى من دمه » ولمّا بلغ الحجّاجَ ذلك استدعاه إليه وسأله

عنه ، فقال: « إنّما أردت العنب» . فقال الحجّاج يتوعّده : « لأحملنّك على الأدهم » (القيد) فقال القبعثرى : « مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» (الحصان) . قال الحجّاج : « أردت الحديد » (المعدن) فقال القبعثرى : « لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً » .

الميول ومراقبتها

الميول مظاهر الشوق الطبيعيّ تتجلّى فى الطفل إذا ترنّح فى اللعب ، وأطلق العنان لحركاته الإراديّة . وقد أنصف روسّو إذ كان يقف من وراء حجاب ويراقب الأطفال من كَثَب فى أوقات لهوهم، فيرى لهم حركات غريبة يفعلونها ، ويَفْتَنُونَ فيها ، وترتاح نفوسهم إليها ولو أخذ منهم الجهد مأخذه . تفقّد ميولهم نحو المذوقات والمرئيّات والمسموعات والملموسات ، وتفقّدها فى الآراء والعقائد تجد لكلّ منهم شأناً خاصّاً يهواه ويتعصّب له ، ويقيم الدليل على رجحانه ، ولو اجتمع الثقلان على أن يحوّلاه عنه بدون إرادته ما نجحوا . نرى بين ظهرانينا أناساً فى طبعهم حذق لصناعة يغفل عنها المعلّمون. ويحوّلونهم على الرغم من إرادتهم إلى غيرها فينهزمون . وقد تلجئ الضرورة شخصاً إلى الكسب من مرتزق لا مجال فيه لمواهبه فيعمله كالمسخّر ، ويعيش به كئيباً ، ولا يظهر عنده إقدام على إتقانه ، فيتبادر إلى ذهن المشرفين عليه أنّه ضعيف الذهن كليل القوّة . وكم تمرّ بأمثاله الأيّام والليالى فى مدارج الحياة ، فإذا هذا الضعيف شاعر أديب، أو كاتب

قدير ، أو مؤلّف متقن ، أو مصوّر ماهر ، أو عالم نحرير ، أو خطيب مِصقع . وقد ورد فى الأثر « اعْمَلوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ »

عرفت بين الطلبة زمن الدراسة الأولى مَن كان ينظم القصيدة التى تموج ألفاظها بالمعانى فى ليلة واحدة ، ولو كلّف حلّ مسألة رياضيّة افترت همّته ، فكان يخيّل إلى المعلّم أنّه عاجز الفكر ، والأيّام وحدها أسفرت له عن شهرة نامّة فى عالم الأدب . ومنهم من كان ذهنه يخترق حجب الأحاجىّ الرياضيّة ، وكلّما صعبت مراميها ووسائل الوصول إلى حلّها ، زادها إمعاناً وسعياً لكشف غامضها ، وكانت مع ذلك قريحته تخمد دون كتابة النثر وقرض الشعر ، فيصفه المعلّم بأنّه كليل الذهن ، مع أنّه ممتاز فى بابه

صحبت من الأميّين رجلاً وحقّق لى الاختيار أنّه حادّ الذهن حصيف العقل ، إذا نطق استهوى عقول سامعيه بما يبتدعه من المعانى وما يزخرف من العبارات . هذا الرجل قد شغلته المحن ، وضايقته أسباب المعيشة ، ولو صادفته عناية المربّين لأنجبت أديباً قديرا . وَخَبَرْتُ آخر حرمته يد الإهمال ثمرة التعليم الصحيح ، وكان لفرط ذكائه إذا عرضت أمور تستدعى دقّة الحساب زاولها بفكره وكان جوابه قرين الصواب ، وما يدرينا أن يكون هذا الشخص رياضيّاً منقطع النظير ، لو وفّق إلى مرشد بصير .

هكذا اقتضت إرادة الله تعالى أن يوزّع النبوغ بين الناس لتتأكد الروابط الودّية بينهم ، وهذا سرٌّ من أسرار العمران . والنبوغ

كالنار الكامنة فى الحجر تخرج منه عند قدح الحديدة له ، وإذا لم يكن فى الحجر نار لا تفيده الحديدة شيئا

ليس من ينكر فضل الحريرىّ صاحب المقامات المشهورة . فإنّ صيته ذاع حتّى دعى إلى رياسة ديوان الإنشاء فى بغداد . فلمّا حضر إليه كلّف أن يكتب فى موضوع محدود فلم يجر لسانه ولا بنانه فى قصيرة ولا طويلة . ذلك لأنّ ذهنه مطبوع على نوع روائىّ مسجّع ، لا يشقّ له فيه غبار ، فليس بعجيب أن يفشل فى كتابة مالم يمرّن فيه نفسه من قبل ، وليس لديه نبوغ فيه . وكذلك الأديب المبرّد وهو إمام فى حلّ مشكلات اللغة العربيّة ، وله قدرة منقطعة النظير على فهم القرآن والأحاديث النبويّة ، كان يخطر له الخاطر فتعييه الكتابة فيه . وقد اعترف أنّه عرضت له حاجة إلى بعض إخوانه وأراد أن يكتب إليه فأحجم . ذلك أنّه رتّب المعنى فى نفسه ، ثمّ حاول صوغه بألفاظ تليق به فلم يستطع . فما أشبهه بحجر المسنّ يشحذ ولا يقطع !

هذا وقارئ التاريخ يستطيع أن يستشهد بكثير من أمثال هؤلاء الذين منحتهم الفطرة مواهب بديعة فى غضارة الشباب ، ونضارة الإهاب ، فحفظتها لهم وديعة ، وسترتها عن العَبَث بها ، حتّى سنحت الفرص فزكت وظهرت بثمارها . روى أنّ عبد الله بن الزبير وهو صبىّ كان يلعب مع إخوانه ، فمرّ بهم رجل ففزعوا منه ، أمّا عبد الله فتقهقر واستنهض عزيمتهم بقوله : يا صبيان اجعلونى أميركم وشدّوا بنا عليه ففعلوا . كذلك مرّ به عمر بن الخطّاب وهو يلعب مع الصبيان

ففرّوا منه ، أمّا هو فوقف غير هيّاب ولا وجل ، فسأله عمر عن عدم فراره معهم ، فأجاب « إنّى لم أجرم فأخافك ، ولم يكن الطريق ضيّقاً فأوسّع لك » . هـذه الشجاعة بدت من عبد الله وهو صغير ، فنمت فيـه وهو كبير . وكان من أمره أن استقلّ بحكم المدينة ، وقامت بينه وبين الحجّاج حروب دمويّة انتهت بقتله . وروى عن سير هرشل (Herschel) أنّ أباه علّمه الموسيقى فى إبّان صباه فعاش بها ، ولـكنّ ميول الشابّ نهضت به فصار فلـكيًّا كشف « أورانوس » من بـين الـكواكب السيّارة ، واستدلّ على وجود كَلَف الشمس .

كذلك حدّثنا التاريخ عن لينوس (Lennaeus) أنّ أباه زَجّ به إلى المدرسـة ليتعلّم اللاتينيّة ، ثمّ إلى مصنع ليكون إسكافا ، فلم يكن إلّا كعامّة الناس ، ولحسن الحظّ لقى مَنْ تفرّس فى طبعه ميلاً لعلمى النبات والأعضاء فسدّده إليهما ، فبرقت فيه بروق النبوغ ، وأصبح فخرًا لأمّته وللعالم . ولنا من سيرة نابليون بونابرت شاهد وعبرة ، فإنّه برع فى الرياضيّات فى غضون حياته الدراسـيّة ، ولضعفه فى الأدب وفى اللاتينيّة التى كانت شـعار العـلم فى ذلك العصر ، وسمه المعلّمون بالضعف وحكموا على عقله بالجمود . فكم بعـدت أحكامهم عن محجّـة الصواب . وكم شغلتهم شئونهم عن مراقبة مميّزاته الـكامنة فيـه . وكم نطقت فِعاله التى كان يزاولها وقت فراغه بما ركز فى فطرته من الميول . قال المؤرّخون : إنّ عاصفة باردة ثارت فى الجوّ جمّدت ماء المطر فنزل ثلجاً غطّى وجه البسيطة وسدّ المنافذ ، فاستعان وهو صبىٌّ برفقائه على

أن يحفِر الخنادق ويقيم الحصون ، ثمّ قسّمهم طائفتين على تخاصم ، وأقام نفسه قائداً لحركة الهجوم ، واستمرّ النضال والجلاد خمسة عشر يوماً حتّى ذاب الثلج ، فاندكّت الحصون وصارت قاعاً صفصفا ، فرجع هو ورفقاؤه إلى المدرسة ، طاوين فى صدورهم تلك النزعة الحربيّة حتّى جاء أوانها ، فنضجت ثمارها ، وفتحت لها الأيّام صدرًا رحيبا .

لشغل وقت الفراغ
عمل دليل الرغبة فيه

واعلم أنّ الطفل وقت فراغه تستولى عليه ميوله وتقود زمام حركاته ، إلى إنفاذ رغباته ، حتّى إنّه ليذهب إلى الشارع ، ويشارك أبناء السبيل فى شئون اللعب ، مخالفاً نصائح أبويه ، وربّما لبّى أمرهما قسرا ، ثمّ يشاغلهما ويعود إلى نزعته كالخَيزُران . ونرى التلميذ يدخل بمحض إرادة أبيه قسم العلوم من المدارس الثانويّة فيُخفِق ، لأنّ أباه تصرّف فى هواه جهلا منه وانصرافاً عن المصلحة ، ثمّ يرجع التلميذ فيتخيّر لنفسه قسم الآداب فينجح . هذه الميول — وكلّ امرئ يضرب فيها بسهم — مثلُها كالمِعْطف يتعهّده الصانع بترتيب وتنسيق يلائم الجسم ، وإذا لبسه شخص آخر لا يوافقه .

المشوّقات

وقد نجح مهرة المعلّمين فى اتّخاذ المشوّقات سبيلاً يستحثّون بها الميول الجامحة ، فيحبّبون القراءة إلى الطفل بما يعرضون عليه من الكتب ذات التصاوير المزخرفة الجذّابة ، فيهيم حبًّا بالقراءة . ويحبّبون إليه قراءة سيَر الرحّالين ، وأوصافِ ما جمعوه من علم نافع ، وأدب ناضج ، وثروة طائلة ، ومستكشفات رائعة . فكم قرأ ليفنجستون (Livingston) أسفار الأسفار فى إبّان صباه ، وهو عامل فى مصنع

نسيج ، ولفرط حبّه لها ملأ بقراءتها أوقات الفراغ ، وكثيرًا من أوقات العمل ، حتّى أصبح رحّالة طائر الصيت ، ارتاد شقّة واسعة النطاق من غربيّ إفريقية .

دَرَجْتُ على كراهة الاغتراب وأنا ناشئ ، ولم أكن أعرف لذلك سببًا إلّا احترام العادة التى عوّدنيها والدى . ولمّا قرأت قصص السندباد فى أسفاره الطريفة تقت إلى السفر ، وأوّل سفرة شرعت فيها وحقّقتها نزوحى إلى السودان وطول إقامتى به . فكأنّ الله كتب علىّ الغربة عن الوطن بعد ذلك ، فإنى ما أتممت فيه مدّتى حتّى عمّت الأقطار الشماليّة ، ولبثت فى إنجلترا زمنًا آخر يقرب من الزمن الأوّل . ومن فرط تأثير كتاب « ألف ليلة » فى قرّائه ، توَهّم الناس أنّ قراءته شؤم على من يحبّ الإقامة فى عُقْر داره .

العوامل المؤثرة فى الأخلاق

١) الوراثة : العامل القهرىّ

٢) البيئة : العامل الاختيارىّ

٣) التربية : العامل الكسبىّ

١) الوراثة

لا ينكر أحد أنّ الوراثة عامل كبير لحفظ النوع ، غير أنّ من لم يعتدّ بها اعتبر أنّها ليست خاضعة لقانون ثابت . فقد يرث الابن من

أبيه شبَه عضو من أعضائه الظاهرة كسَحَنَة الوجه أو أجزائه ، وقد يرث شبَه عضو من أعضائه الباطنيَّة كجهاز الهضم أو التنفُّس أو العضلات أو المجموع العصبيّ . والمشايعون للوراثة يستشهدون من التاريخ لوراثة الحرف كالمصارعة والغناء ، ولوراثة الشيم كالشجاعة والأنفة وقوّة الارادة ، وبيّنوا بالإحصاء أنّ الوراثة تكون فى الجنون وطول العمر وحبّ الانتحار والانقباض الغالب على النفس . وفى عالم الحيوان تجد حِدَّة حاسَّة الشمّ وراثيَّة عند الكلاب ، حتّى إنّ بعض أنواعها يرث من أصله قوّة اقتنَصٍ معيَّن ، وإنّ هنود شمالىّ أمريكا يتأثرون أعداءهم بمجرّد الشمّ ، ويورّثون أبناءهم هذه الخاصّة . فإذا صحَّت مشاهداتهم ، وتمسّكنا بعدم الوراثة فى الأمور الكسبيَّة فإنّنا نَعُدّ هذه المميّزات من الغرائز ، وما يورث فيها إنَّما هو الاستعداد لأداء تلك الخاصَّة على شريطة أمرين : سلامة الأعضاء الكفيلة بأداء هذه المميّزات ، والتمرين المبنىّ على المحاكاة ، أمَّا إذا ضعفت الصحَّة ، أو كانت الأعضاء بمعزل عن التمرين الصحيح ، فإنَّ زاوية الخلاف بين الفرع وأصله تنفرج .

وصفوة القول أنَّ الحىَّ تؤثّر فيه الفواعل الخارجيَّة ، فإذا تكرّر تأثيرها فيه وفى نسله تكراراً لم تَشُبْهُ عوارض ، فإنَّ الوراثة تجرى فى النوع كما تجرى العادة فى الفرد ، وينتقل منها فى الفرع شىء وراثىٌّ ولو قليلا . هذا الرأى يقرّبنا كثيرًا من مذهب أرسطو أنَّ للإنسان روحين : حيوانيَّة وتخضع لقوانين الوراثة ، ومَلَكيَّة ويهبّها

الاستعداد للاستفادة من التمرين .

وإذا كان تطرُّق عامل الشرّ إلى الطفل بحكم الوراثة قهريًّا ، وورث من أبويه أعضاء مريضة ، فهل يستطيع المعلّم أن يقوّم اعوجاجه ؟ وإذا سيق رغم إرادته إلى الإجرام أفيُترَك وشأنه أم يجب بذل الوسع فى إصلاح نقصه بالطرق الصناعيّة التى جنى الفلاسفة ثمارها ؟ وقد قلّت الجرائم فى الممالك التى شيّدت مدارس الأحداث يَشْغَلُونهم بتعلُّم الحرَف عن العيث بالفساد .

---

٢) البيئة

الوطن الأوّل للطفل هو بطن أمّه ، وحينئذ لاتكون له حياة مستقلّة بل تابعة للجسم الذى استقرّ فيه . فإذا عُنِيَت الأمّ بصحّتها نما واستكمل خلقه ، وخرج إلى منفسح الوجود كامل الاستعداد ؛ وإلّا فقد أساءت إلى نفسها وإليه وربَّما أجهضت . ومن ضروب الإهمال فى مراعاة صحّته حينئذ حملُها العبءَ الثقيل ، أو تعاطيها الغذاء الغليظ ، أو حشوها المعدة فتضغط جسمه وتشوّه أعضاءه . وكذلك ذواتُ الأمراض العصبيّة وحادّاتُ المزاج وذواتُ الوساوس يلدن شواذَّ الخلقة غالبًا . حُكِىَ أنّ صاعقة سقطت على قرية فشاهدتها حامل عصبيّة . فسقطت مغشيًّا عليها ، وانقبضت أحشاؤها فأصاب الضغط دماغ الجنين فأفسد مركز عقله . والحكيم توماس هوب[1]

---

(١) من علماء الانجليز فى القرن السابع عشر

نسب ما فيه من خلق الجبن إلى ما لقيته أمُّه من الأهوال وهو جنين فى بطنها . فإنّ العمارة الإسبانيّة (أرمادا) كانت حينئذ تطوف حول سواحل انجلترا وتهدّدها .

وبعد ولادته يكون وديعة بين يدى مربّيته ، تتصرّف فيه بما أُوتيت من رحمة وشفقة ، أو قسوة وجبروت . تُهمله من الرعاية فيتساقط الذباب على عينيه ويؤذيهما ، ويهبط على شفتيه فيسقيه سمّاً زُعافا ، وأكثر الأمّهات يجهلن مايلائم نموّه ، وما أشدّ إيذاء الصديق الجاهل ! يسىء من حيث يريد الإحسان . تراهن يلاطفنه رَبْتاً [1] على ظهره ، أو نكشاً لشعر رأسه بالإصبع فى موضع واحد ، لإزالة ما عسى أن يكون به من الهوامّ ، فيناله الأذى وهنّ لا يشعرن . وقد يقيّدن استقلاله بالتقميط ، أو يمنعنه من مشاهد الطبيعة الرائعة ، أو يقلّلن عرض الأشياء السارّة عليه فيقضين عليه قضاء لارجاء معه .

البيئة الطبيعية

للإقليم والمناخ تأثير ظاهر فى الأجسام والأخلاق ، فساكنو الأودية ليسوا كسكّان الجبال فى صفاء الخلقة ، ورصانة العقل ، ومتانة الجسم . وسكّان الأقاليم المعتدلة ألطف خلقا ، وأبهى جمالا ، وأوفر حصافة ، وأكثر حبّاً للصناعة ، وأشدّ إكباباً على العلوم ، وهم فى الحقيقة

---

(١) ضرب اليد على جنب الصبى قليلا لينام

أهل الحضارة والإمارة والذوق الحسن والاختراع المفيد . ذلّلوا العالم الأرضىّ والمائىّ والهوائىّ ، ولهم كلّ يوم فتوح علميّة رشيدة ، و بدائع فنّيّة جديدة . وسكّان السواحل أذكياء لتمتّعهم بمناظر البحار ، ولاعتمادهم على لحوم البحر غالباً وفيها الفسفور الذى يساعد على الذكاء. وهم فوق ذلك أهـل جدّ يجيدون السباحة ، ويتجشّمون الأسـفار البحريّة ، ويتنسّمون رياحها المنعشة . والعرب مطبوعون على الشعر لاستقلال أفكارهم ، وقناعتهم بشظف العيش . وغزارة ملكة الخيال فيهم ، وامتداد أعينهم فى ساحة مترامية الأطراف ، تحت سماء صافية الأديم ساطعة الكواكب . كلّ هـذا أوحى إليهم من بدائع الخيال ما أوحى . والبـدو مشهورون بالكرم وبالاسـتقلال وبالشجاعة ؛ مشهورون بالكرم لأنّ قفر بلادهم حبّب إليهـم المهاجرة فساروا فى البوادى المجرّدة من الأسواق ، وربّما نَفِدَ من أحـدهم الزاد والمـاء فيجد من الصدور الرحبة ما يُقِرُّ عينه ، ويخفّف عنه وَعْثاء السفر ؛ مشهورون بالاستقلال لما تمرّنوا عليه من القناعة والخشونة ، ينصبون خيامهم حيث ينبت الكلأ يسيمون فيه دوابّهم ، وإذا زحمهم زاحمٌ هجروه واستعاضوا عنه أرضاً أخرى بدون عناء ؛ مشهورون بالشجاعة لأنّ كلّ فرد يمرّن يديه على استعمال السلاح دفاعاً عن نفسـه من مهاجمة وحش أو عدوان عاد .

أمّا المناطق غـير المعتدلة فحيوانها شرس ضارٍ فتّاك . تجد فى أدغال إفريقيّة الفيل النفور والأسد الضارى والتمساح المفترس والحيّة

السامّة والذباب المؤذى ، وتجد أمثال هذه الحيوانات فى آسيا الصغرى هادئة ، حتّى إنّ بعض الدِبَبَة تحاكى الغنم فى طاعتها للإنسان واستئناسها . ولا تكاد تجد بها هوامّ سامّة .

وقد أصاب ابن خلدون فنسب للسودانيّين الطيشَ وكثرةَ الطرب والولوع بالرقص عند إيقاع الألحان ، وعلّل هذا بأنّ طبيعة الفرح انبساط الروح الحيوانىّ ، فالحرارة تَهيج فيهم هذا الخلق ، كما تَهيج المغتسلين فى الحمّامات . فإذا تنفّسوا فى هوائها الساخن امتزجت حرارته بنفوسهم ، فاهتزّوا طرباً ومالوا إلى الغناء .

والمكان الخصيب تتوافر فيه الخيرات ، فينغمس أهله فى النعيم والترف ، وينشئون منكسفى الألوان بلداء . انظر إلى أنواع الحيوان المتشاكلة ، فإنّ ما يسكن منه القفر ومواطن الجدب كالغزلان والنعام والمها والزرافىّ وحُمر الوحش أجمل ممّا يسكن الأرياف والمراعى الخصيبة فى صفاء الخلقة ، وتناسب الأعضاء ؛ فالغزال أخو المعز ، والزرافة شبيهة بالبعير وهكذا .

البيئة الاجتماعية

يحتاج الإنسان إلى الرفيق للاشتراك معه فى مهامّ الحياة المتنوّعة ، فوجب عليه أن يقاسمه حبّه ، ويحافظ على ولائه . وقد علمت من الفصل السابق أنّ الإقليم يؤثّر فى طباع سكّانه . وأحيانًا

تطرأ الحوادث الجسام على هؤلاء السكّان ، فتتغيّر أخلاقهم ويؤثّرون فى طبيعة الإقليم . فالعرب كانوا رعاة أغنام ، راضين من الحياة بعيشة الكفاف ، خاضعين لأحكام الإقليم عليهم ، فلمّا ظهر الوحى واتّبعوا نوره ، انقلبت طبيعتهم فهجروا عيشة الكفاف ، واندفعوا فى الممالك كالسيل الجارف ، ونصبوا أنفسهم فيها ملوكا . بَيد أنّهم لمّا تحضّروا وعاشوا عيشة الترف ضعفت شكيمتهم ، وصاروا بعد العزّة والمنعة أذِلّة خامدين . حَكى التاريخ أنّ امرأ القيس شبّ فى قومه مترفا ، عاكفاً على اللهو والخلاعة والفسق والسكر والعربدة والجلوس فى مجالس أهل الريبة والنقيصة ؛ ولمّا وصل إليه نبأ قتل أبيه وهو على تلك الحال صُدِع ، فانقلب كيانه ، ونطق لسانه ، بهذا القول المأثور ، والشعر المنثور : «لاصحو اليوم ولا سكر غدا ، اليوم خمر ، وغداً أمر» ، وطوى صحيفة اللهو ، وانطلق فى الفلوات طالباً الأخذ بالثأر على عادة كبار النفوس من العرب . وقرأنا من أخبار الثورة الفرنسيّة الكبرى أنّ كثيراً من العصاة كانوا هادئى الأخلاق فى زمن السلم ، فلما ثارت عاصفة الثورة انقلبوا كالوحوش الضارية ، وكان لبونابرت منهم أعوان مخلصون .

العقل كالجسم تؤثّر فيه بيئة المعانى ويؤثّر فيها . تبهَره المحاسن فيتلقّاها بالقبول ، ثمّ يصوغها من جديد صوغاً يلائم مزاجه ، لا فرق بين أن تكون هذه المحاسن من المنظورات أو المسموعات . قال أبو تمّام :

وأحسن من نَوْر يفتّحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

قيل إنّه نظم صدر هذا البيت ثمّ أعياه القول فلم يستطع إتمامه ، ثمّ سمع سائلاً يستجدى بقوله : من بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا فاستجاد قوله ، واستعاره منه ، وكمّل هذا البيت . ترانى أجلس فى حديقة تشدو بلابلها وتسجع أطيارها على أفنان الأشجار ، والماء يمرّ بها فيسقيها ، والنسيم يحرّك ساكنها فيشجيها ، وأرى السحب فأناجيها بما ناجى به الشاعر الأندلسىّ :

كلّلى ياسحب تيجان الربا بالحُلِى واجعلى سوارها منعطف الجدول

فإنّ جلال هذه المشاهد يهزّ وجدانى ، ويملك ناظرى ، ويشحذ تأمّلى ، ويوحى إلى الحافظة فتدّخر منه ماتريد ، ويصوغ منه الخيال ما يشاء ، وما ظنّك بخيال حققته براعة الصنّاع فأنطقوا الحديد ، وأطاروا المعاقل ، وسيّروا الأعلام فى البحار .

وقد علمت أنّ الخبرة الذاتيّة خير مصادر العلم الصحيح . ومن ذا الذى يستطيع أن يستوعب الأمور كلّها ؟ والعمر مهما طال قصير . وربّما لا يهتدى الإنسان إلى معرفة الحقائق التجريبيّة إلّا وهو فى آخر مرحلة من العمر ، ويموت قبل أن يستفيد ممّا قضى عمره فى الحصول عليه ، يموت ويترك المجال لشخص آخر يعيد الكرّة لينتهى إلى مثل هذه النهاية ، مع أنّ الحقائق ينبغى أن تكون من مجهود الجماعات كلّ منهم يسدى إلى الآخر نتيجة عمله ليزيد عليها .

لذلك كان من متمّمات الإنسان أن يستعين آراء غيره ، ويتبادل

مع المفكرين نقد المسائل ، ويقرأ سِيَرَ النوابغ ، مستعيرًا منها العبر والنصائح ، والكتب خزائن العلوم ، جمعها المؤلفون بعد عناء وجهاد . فما أوفر السعادة لمن عكف على قراءتها ، وفَهِمَ أغراضها ، مستغنيًا بها عن هذا العالم المكتظّ بالأحقاد والنفاق .

تقضى ضرورة الاجتماع على الإنسان أن يدرس طباع معاشريه محتكًّا بهم ، فإنَّ جهله بأخلاقهم يجرُّه إلى أن يغترَّ بأحاديث أهل الخديعة فيحاسنهم حيث ينبغى أن يخاشنهم « وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » ، أو إلى أن يخشاهم فينقلب علمه جهلا . وتقضى ضرورة الاجتماع على المدنىّ ألّا يكون عقله مجرَّد وعاء ترسب فى قراره المعانى ، بل منبريًا للاستفادة من علمه وتجاربه فى المصلحتين : الخاصَّة والعامَّة ، سالكًا السبيل التى تهيّئه لأن يكون عضوًا عاملا .

وقد تحقَّق الناس صدق الاجتماع فتعاونوا على ترقية وسائله ، وأسّسوا الأندية للمباحث العلميَّة والاجتماعيَّة ، فإذا قويت بينهم روابط الودّ ذلّلوا الصعاب ، وقدحوا زناد المبتدعات النافعة

السعى لاختيار البيئة

ننظر إلى النبات فيخيَّل إلينا أنَّه ثابت فى مكانه ، ولو فحصت عن جذوره لعلمت أنَّها تتشعَّب فى الثرى ، وتسيخ فى أعماق الأرض طلبًا للغذاء .

والحيوان والإنسان مفطوران على حبّ الانتقال من بيئة إلى أخرى ، ويشعران أن الحبس يقضى على السعادة قضاء ، ولذلك جُعِل أكبر عقوبة للإجرام قال المتنبّى :

إذا صديق نكرت جانبه لم تُعْيِنى فى فراقه الحيل
فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

إنّ حبّ الإنسان لنفسه يدعوه إلى السعى وراء المناخ الصالح والجليس الصادق ، وإذا استوطن أرضاً يفضّل ناحيــة على ناحية ، وأناساً على أناس . ويمارس العمل وإذا وجد منه ضجراً هجره واستبدل به غيره . والمهاجرة — مع ما فيها من مفارقة الأهل والأصحاب — تهيم بها النفوس الأبيّة حبّاً فى الثراء ، وطلباً لاجتلاء محاسن الطبيعة ، وشغفاً برؤية المتجدّدات فى عالم الصناعة ، والوقوف على أخلاق الأمم ، ودرس ما وصلوا إليــه من العلوم . « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ . قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » ؟

إصلاح البيئة إذا ساءت

نعم إنّ النفس الرفيعة تجمح بالطبع من البيئة السيّئة ، وتودّ لو أنّ صاحبها يهاجر إلى حيث يطيب له المقام . وإنّها لكذلك إذا خاطر يوحى إليهــا أنّ التذرّع بالصــبر أفضل ، وأنّ الجهاد لإصــلاح البيئة السيّئة واجب تستدعيه محبّة الوطن . عند ذلك تهبّ من منامها غيرَ هيّابة ولا وَكِلة ، لتعالج النقائص معالجة الطبيب الحاذق ، متذرّعة

بما أوتيت من عزم ثابت ، وفكر ثاقب ، وإرادة صحيحة ؛ وكلّما استعصت وسائل العلاج الناجع زادتها الرغبة إقداماً ونشاطا . والنفس التى هذا شأنها خليقة بأن تتولّى قيادة التعليم والتأديب .

العلم وطن المفكرين

إنَّ العلم النافع وطن للمفكّرين أولى النفس السامية ، يتسلّى به من عاداه المناخ ، وأساء إليه الجليس ، خضعت لأحكامه أشتات الصناعات ، وأفاض من نوره شعاعاً على عقول العاملين ، فاخترعوا المدافئَ للوقاية من وطأة القرّ ، والمراوحَ لتخفيف الحرّ ؛ ورسموا — مستعينين به — مناظر بديعة رائعة ، جَذّابة خلّابة ، يتمتّع برؤيتها المقيم فى وطنه ؛ ودوّنوا الأغانى على صفحات الحاكى ، حتّى أصبح فى وسع الإنسان أن يسمع رنّات المثانى ، ومناقشة الخطباء ، وعزف الآلات وهو بين أركان منزله . وعلى الجملة يتسنّى لمن ركز العلم الصحيح فى ذهنه أن يقلّب الأمور على وجوهها ، ويتخيّر أحاسنها ، ويتّخذ من جحيمها نعيماً يريح النفس ، ويجلو عنها صدأ الهموم . وبيئة العلم مع هذه المزايا لا تحتاج إلى ثراء واسع يعجِز عنه المقلُّ . ومن توافر لديه المال فلا حرج عليه أن يخرج من وطنه ليتفقّد شئون الناس . ثمّ يعود إليه قوىّ الجسم موفور العقل « وَمَنْ يُهَاجِر فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَاغَماً [1] كَثِيرًا وسَعَةً »

(١) المذهب فى الارض

٣) التربية والتعليم

إنّ المعلّم كالغارس يتعهّد الشجرة بضمّ عود مستقيم إلى ساقها لتنمو على الاستقامة . وإنّ الطفل كالغصن الغضّ فيه استعداد للاسترشاد بتجارب المشرفين عليه . ولأمّه عليه الإشراف إلى السنتين من عمره ، ثمّ يشاركها الأب ويتضافران على إصلاح شأنه واختيار بيئته . وإذا بلغ السابعة من العمر استقبلته طلائع التكليف عند الحكومات النظاميّة فتُجبره على التعلّم ، ولا يكاد يدرك سنّ البلوغ حتّى يتكامل عقله ، ويسمو به وجدانه فتهيم نفسه بالموجودات ، ويستعين الخلطاء فى فهم ما أشكل عليه منها ، ولا تزال خبرتاه : الذاتيّة والاجتماعيّة تزدادان ، وميوله ومطامعه تتضاعفان ، وكلّما مارس الصعاب وتقلّب على جمر الآلام ازداد صفاء ، وحقّق رجاء .

وازن بين رجلين : أحدهما بدويٌّ فحٌّ قنوع بشظف العيش ، عقله غُفْل من زخارف الصناعة ، والثانى مدنيٌّ نشأ فى حضن الحضارة والرفاهية حتّى قدر ذوقُه على فرز ضروب المحاسن ؛ إنّ الفرق الذى يتبيّن لك بين هذين الرجلين هو أثر التربية الصحيحة التى نَنْشُدها . وكم طالت العصور ، وانقضت الدهور ، ولم ينته البحث فى طرق التعليم ، وما وصل الناس إلى أقصى غايات العلم ، وكلّما خطوا إليه وردوا حياضه رأوه بحراً واسع الأرجاء ، جزيل السخاء . وأنت إذا قدرت ما وصلوا إليه فى غضون ستة آلاف سنة اشتغلت فيها العقول فرادى وجماعات ،

تعلم أننا أدركنا منه غاية لم يكن أحد يتوقعها . فإنّ الفلسفة التى كانت فرائصنا ترتعد عند ذكر اسمها ، لاشتمالها على المسائل التى تحتاج من العقل إلى جهد وعناء ، أصبحت سهلة المتناول ، فاسترشد بها الصانع والتاجر ، واهتدى بها السائح والمنقب عن ماضى الإنسان والحيوان وحاضرهما ، واستعان بها المعلّم فى استجلاء الغرائز والاعتداد بها فى إيقاظ الهمم الفاترة ، والميول الطاهرة . وقد دُوّنت ببطون الأسفار تجارب الحكماء من عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى العصر الحاضر . ولا يكاد القارئ يفرُغ من قراءتها حتّى تتجلّى له المجهودات التى سَبَرُوا بها غَوْر العقل ، والخُطوَاتُ التى تدرّجوا بها لدرس أحواله النفسيّة ، وما أطولَ الأشواط التى قطعوها فى سبيل البحث لإدراك مرامى الحقيقة ؛ ولا يزال المعلّمون يعتقدون أنّ فواعل الوراثة عقبة فى سبيل نجاحهم ؛ بَيْدَ أنّ لوك[1] وهربارت ضربا صفحاً عنها . قال الأوّل : « إنّ عقل الناشئ كالصفحة البيضاء ، ينقش عليها المعلّم ما يشاء ، والعادة والاختبار عاملان كبيران للنجاح ، ونحو ٩٠٪ من الناشئين قد شكّلتهم التربية فكانوا على حسبها محسنين أو مسيئين » . ولا أدرى لما ذا لم يعتدّا بالوراثة مع أن آثارها ظاهرة لا تحتاج إلى برهان . واعتقد الثانى أنّ الأرواح عوالم مجرّدة من الاستعداد الوراثىّ ، وكلُّها متشاكلة من بادئ الأمر . والطفل الذى

(١) Locke لوك توفى سنة ١٧٠٤ عالم انجليزى برع فى الطبيعيات والطب وجعلها أساس أبحاثه فى الفلسفة

يراد به أن يكون نابغـة أو عبقريًا يتوقّف مصيره على المربّى . اعتقد هـذا وهو لا ينكر أنَّ هناك أفرادًا لا تنجع فيهم التربية مطلقاً مهما بلغت براعة المعلّم.

إنّنا نعوّل فى التأديب على القدرة الصالحة والانطلاق فى ميدان التمرين والتجارب التى تهيّئ الجسم والعقل للجهاد فى سبل الحياة جهاداً يتّفق هو والميول والمصلحة فى المجتمع الإنسانىّ . نقتفى أثر استعداد الطفل ونقف على حدوده لنتّخذ منه مقياساً للطريقة المثلى . ونراقب البيئة ونتتبّع مطالبها لنتّخذ منها مقياساً لما نختاره من العلوم . على أنّه لا يسوغ لنا أن نقتصر على مطالب البيئة الحاضرة ، بل ننظر إلى أفق من العلوم أعلى قدراً وأرجح وزنا ، لنبرهن على أنّنا أمّة ناهضة . إنّ الضابط الذى يكفل لنا اختيار مادّة الدراسة هو أن نفحص عن أهمّيّة العلوم لأنفسنا ، فلجسمنا ولعقلنا ولنظام أعمالنا ولتثقيف وجداننا ولضبط أخلاقنا ولكلّ مايساعدنا على نيل سعادتنا حقوق لها علاقة وثيقة بحياتنا الكاملة ، ولا نعرف هـذه الحقوق إلّا إذا استوعبنا دراسـة العلوم الموصّلة إلى هـذه الغاية ، والتى من أجلها شرع التعليم والتأديب . يجب أن ندرس العلوم لنتّخذ منها سلاحاً نحارب به الرذائل ، ونحافظ به على الصحّة ؛ ويجب أن نستنير بنِبْراس العلوم لنسترشد به فى تحصيل القوت ، ولنعرف كيف نحافظ على ولاء المعاشرين واقتباس ثمرات مجهوداتهم ، وكيف نملأ فراغ أوقاتنا بمباشرة الفنون الجميلة التى نستمدّ منها الراحة .

طريقة هربارت

اشتهرت هذه الطريقة بين المربّين بأنّها تساير الميول النفسيّة والقواعد المنطقيّة والمَلَكات الذهنيّة ، فلذلك اعتدّ بها من يتصدّى للتعليم الصحيح . يبتدئ المعلّم فيوقظ عند الطفل الحقائق البديهيّة لتكون للدرس بمثابة مقدّمة له ، ثمّ يتدرّج إلى الحقائق الخفيّة ، سالكاً فى إيضاحها سبيل النشوء من الجزء إلى الكلّ ومن السهل إلى الصعب ، ويصل حلقات المعانى بعضها ببعض قديمها وحديثها ، فتتألّف منها سلسلة متماسكة الأجزاء ، ويسلك فى تمحيصها مسلك الوضوح والجلاء ، مبيّناً بالمثال مواضع المشابهة والخلاف ، ليتسنّى له أن يستخلص من الأوصاف المشتركة ضابطاً مختصرا ، إذا وعاه الطفل فى ذهنه سهل عليه استذكار تلك الأمثلة التى عرضت عليه وهى فى طور التكوين ، وسهل عليه بعد ذلك أن يطبّق عليه كلّ ماله بتلك الأمثلة شبَه . هذا وكتب التعليم قد تكفّلت بشرحها ويغنينا الرجوع إليها عن التوسّع فيها هاهنا .

طريقة القرآن

قد نسب المربّون إلى روسّو فكرة إثارة التشويق فى نفس

المتعلّم . ونسبوا إلى هربارت فكرة اختيار تلك الطريقة النفسيَّة المنطقيَّة . ولو راجعنا التاريخ لرأينا طريقة القرآن تصدَّت لهذه الأغراض ووفَّتها حقَّها قبل وجودهما بما يزيد على عشرة قرون .

قال تعالى فى سورة الغاشية « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ؟ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ؟ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ؟ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ؟ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ » .

وقال فى سورة الأعلى : « فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ » .

فى الآية الأولى وجَّه القرآن بأسلوب رصين ، أنظار المفكّرين ، إلى المشاهد الطبيعيَّة البديعة للاستدلال على ما لله تعالى من جلال وعظمة وقدرة . انظر كيف حثَّ على التشويق ليدفع الناظر إلى اليقين بالإرادة لا بالقسر ، والقوَّة القسريَّة تقتضى الإلزام الوقتىّ ، حتّى إذا فنيت عاد الأمر إلى وضعه الأوَّل .

وفى الآية الثانية حثَّ على جعل التذكير نافعا ، تفهم هذا من صيغة الجملة الشرطيَّة التى تقدَّم عليها ما يفيد الجواب ، ولا يكون التذكير حقيقيًا إلّا إذا سلك مسلك الطريقة النفسيَّة المنطقيَّة .

ولو سرد المنصفون بالاستيعاب ، كلَّ ما جاء فى القرآن من هذا الباب ، لم يعجبوا من أنّه منذُ القدم آية من آيات الإعجاز .

إليك شاهداً من طريقة القرآن فى سبيل محاربة شرب الخمر الذى فشا قديماً بين العرب وغيرهم ، وتعلقت به نفوسهم تعلقاً بعث الشعراء على مديحه ، ووسعوا مجال القول وبارع الخيال فى وصفه .

جاء الوحى أولاً بهذه الآية : « وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا » فرأى العرب أوامر القرآن تمشى مع ميولهم ، فأحبوا النبىّ وأنصتوا للوحى الذى نزل عليه ، ولم يقفوا معه موقف المعارضين . ثمّ جاءت الحوادث تترى فنزلت فيها الآيات بحسب مقتضياتها . شرب أحدهم الخمرَ ، ونطق بفحش القول وهو يصلّى ، فنزلت هذه الآية : « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فعرفوا أنّ الصلاة مناجاة لله ، وينبغى عند أدائها أن يشاركها الخضوع والتأمّل ، فاستنكروا شربها فى الصلاة فقط ، وهذه هى الخُطوة الأولى فى المنع . شربها أحدهم فعَرْبَدَ واعتدى على آخر ، فنزلت هذه الآية : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » . فاستحسنوا الامتناع عنها ، وهذه هى الخطوة الثانية فى المنع . ولمّا تهيّأت النفوس للنصح ، وتبيّن لها ما ينطوى عليه الوحى من المصالح ، نزلت هذه الآية التى حرّمت شرب الخمر مطلقاً ، واستجمعت كثيرًا من الأدلّة ، وها هى ذه « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ

مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ » . وهذه هى الخطوة الأخيرة فى المنع .

فانظر إلى ضروب السياسة والحكمة فى التشريع كيف سارت؟ وأىَّ سبيل اتَّبعت ؟ تَرَ أنَّها تنزَّلت إلى أفق المتعلّمين لتزيل من نفوسهم أسباب النفور ، ثمَّ أخذت تتدرَّج فى سبل الكمال وهم بها متعلّقون ، حتّى وصلت بهم إلى الهداية المنشودة . ومحاكاة هذه الطريقة — وهى المثل الأعلى — أمنيّة المؤدّبين ، منذ فطر الله لإنسان إلى يوم الدين .